محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الجزء الحادي عشر

تأليـــف:

فضيلة الشيخ / محمد الصادق إبراهيم عرجون

عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقًا

ابيض

بسم الله الرحمن الرحيم

الجهر بالدعوة
وكفاح النضال الصبور

إسلام عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب إرهاصًا للجهر بالدعوة:

كان إسلام حمزة بن عبدالمطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما والدعوة مستسرَّة في دار الأرقم إرهاصًا بدخول دعوة الإسلام الناشئة المتخفية دورًا جديدًا، هو دور العلانية والجهارة، مع ما يصحبه من كفاح صبور ونضال مرير وأزمات شديدة متفاقمة، يصطدم بها محمد رسول الله ﷺ وأصحابه من القلة السابقة الذين آمنوا بالله ورسوله، متسللين تحت جنح الظلام، يمشون على أطراف أصابعهم حتى يصلوا إلى معهد الدعوة، أول معهد في الإسلام، في دار الأرقم، تحت ظل الصفا على مشهد من الكعبة المشرفة، وكان هذا المعهد الذي اختاره الله لرسوله ﷺ لبثّ دعوته همسًا ومناجاة مصدر إشعاع الدعوة، ومشرق نورها، ومطلع هدايتها، ومتنزل إلهامها، ومدرس مدارساتها، ومهبط وحيها.

دار الأرقم أول معهد في الإسلام لدراسة حقائق هذا الدين القيم:

يجلس فيه النبي ﷺ وحوله صفوة السُّبَّق إلى الهدى ودين الحق، يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، بما يعلمه الله من وحيه وتنزيل كتابه، ويؤدبهم بأدبه النفسي الذي رباه الله عليه ونشَّأه على هديه، ويفقههم في الدين، ويرشدهم إلى مراشد الحياة ومحاسنها، ويلقنهم بسمته ودلِّه، وحركاته وسكناته، ونطقه وصمته، منازعَ الصبر والمصابرة، وضبط النفس، وشجاعة القلوب، ونقاء الباطن، وتحمل فوادح البلاء، والحلم مع المقدرة، والصفح والمغفرة، إعدادًا لما ينتظرهم من شدائد الحياة، ومرارة الكفاح، وعنف النضال في سبيل نشر دعوتهم إلى الحق، وتبليغ رسالة نبيهم ﷺ إلى الدنيا بأقطارها، وأجيالها، أحمرها وأسودها.

مظهر قوة إيمان الرسول ﷺ برسالة الله:

وكان هذا الدور الجديد أعظم مظهر لتجلي قوة إيمان رسول الله ﷺ برسالته، ذلك الإيمان الذي أعجز القوى الإرهابية في دنيا الشرك والوثنية، أن تقف أمام عزيمة محمد ﷺ في تبليغ دعوته، وهو يحمل راية نضالها وحيدًا في وجه تألب أشرس قوى الأرض وأعتاها، حتى خرج بها على قوى الشر والطغيان

معلنًا صوتها، يدوِّي في أرجاء مكة، وملؤها متحلّقون حول الكعبة يتهاجرون ويعبثون متضاحكين.

إقبال الصفوة على الإيمان بالدعوة الجديدة:

وقد أقبل على الدعوة وهي في استخفائها الفردُ بعد الفرد، والعدد القليل بعد العدد القليل، والزمرة بعد الزمرة، من أصفياء الفطرة، يتسللون إلى ساحتها لواذًا في استخفاء متوجس، ومناجاة هامسة، وأصوات خافتة أشبه ما تكون بالرمز والإشارة، وحركات معبرة، وقلوب واجفة، لا ترهب الموت، ولكنها تخاف الفوت.

شَرَق قريش وغصصها بإسلام حمزة وعمر والجهر بالدعوة:

فلما أسلم حمزة وعمر رضي الله عنهما -وهما فَتَيَا قريش جراءة وشجاعة- شرقت بإسلامهما قريش، وغص به ملؤها من غطاريف الكفر وأحلاس الوثنية(١)، واشرأبت أعناق المسلمين بالعزة والقوة، وأعز الله بإسلامهما دينه، وشد بهما عضد نبيه ﷺ، وخرج المسلمون من اختفائهم بدعوتهم، وأعلنوا عن إيمانهم وظهروا إلى الملأ بإسلامهم، وجهر

(١) أحلاس الوثنية: الذين لا ينفكون عنه. الحلس ما يُطرح على ظهر الدابة، وما يُبسط في البيت من حصير ونحوه. ويستعار للملازمة، فيقال هو من أحلاس كذا، أي لا يفارقه. (المجلة).

صوتهم بتوحيد الله وتكبيره، وانتصفوا ممن أغلظ عليهم، وطافوا بالبيت المحرم علانية، وتحلقوا حوله يتحدثون في أمورهم، ويتشاورون في طرائق نشر دعوتهم، وكانوا من قبل لا يستطيعون الوصول إلى البيت الحرام إلا خفية في تسلل وتوجس وحذر.

واشتدت الأزمات، وتفاقمت الأحداث، واستشرى الأمر بين الطغيان الوثني وبين رسالة محمد ﷺ، وهي رسالة تستهدف الإيمان بالله إلهًا واحدًا متفردًا بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والتدبير، فلا يعبد سواه ولا يُدعى معه آلهة أخرى، وهذا هو جانبها الإيجابي، كما تستهدف إزالة جميع ألوان الكفر والضلال، وتحرير العقول من أغلال الجهل وتراث الجاهلية، والإلحاد الأعمى.

كان إسلام حمزة وعمر الثمرة الجنية لاستسرار الدعوة والجهر بها:

وقد كان إسلام حمزة وعمر من أعظم ثمرات السياسة الحكيمة المحكمة التي سلكها رسول الله ﷺ في استسراره بدعوته، وتبليغ رسالته إلى من يتقبلها من قريب، دون عنت في الدعوة أو مبالغة في التبليغ، تمكينًا للرسالة أن تسري إلى العقول والقلوب في جوٍّ من الهدوء المطمئن،

واليقيـن المؤمـن، وراحـة النفس، وسـكون الضميـر ودون إثـارة للمعوقـات التـي قـد يلجـأ إليهـا مناهضو الدعـوة من زعمـاء الوثنية ومناصب الجاهلية الذين يخشـون على تراثهم وتقاليدهم البالية، ومواريثهم المشحونة بالغطرسة والكبرياء الجوفـاء، أن تذهب بهـا الدعوة الجديدة، التـي نادت أول ما نـادت بالتوحيد، ومعرفة حق جلال الله فـي تفرده بالتعبد له، وإطلاق حرية الإنسان وإشعاره بحقيقة إنسانيته، وإرشاده إلى معرفة حقه في الحياة الحرة والعيش الكريم.

فاضطربـت عقول أولئك الزعماء في رءوسـهم الخاوية إلا من البغـي والبـأو[٢]، والتكاثر من الأمـوال والأولاد وزخرف الدنيـا، وحـب السـيطرة علـى الحيـاة، واسـتعباد الضعفاء واسـتضعاف الفقراء والكادحين، ورجفت قلوبهم الفارغة إلا من التعبد للأحجار والأصنام حينما رأوا محمدًا رسول الله ﷺ يدخل عليهم المسـجد -وهم متحلقون في مجالسهم العابثة اللاهية- في صفين من سُبَّق المسلمين الذين كانوا يستخفون بإسلامهم لئلا يثيروا العوائق أمام دعوتهم، ولعل الكثير منهم لم يكن يعرف الكثير من المسلمين الذين فاجئوهم بتجمعهم حول رسول الله ﷺ، وعن يمينه عمر بن الخطاب، وعن يساره

(٢) البأو: الزهو والافتخار. (المجلة).

حمزة بن عبدالمطلب سيدا فتيان قريش وصاحبا أيدها[٣]، وهم يكبرون الله تعالى في صوت جهير موحد، تجاوبت به أكناف مكة واهتزت له أرجاؤها، فأخذ ملأَها أفكل أرعدهم وحل عرى مفاصلهم[٤]، وأصابهم المقيم المقعد من الهم والغم، وكبتوا، وران على وجوههم قتر الذل والخذلان، كأنما أغشيت وجوههم قطعًا من الليل مظلمًا.

فشو الإسلام وتحدث الناس به:

وفشا الإسلام، وتحدث به الناس فيما بينهم، وسرت دعوته تقرع الآذان والقلوب، وأقبل عليه من كان أحجم عنه، ودخل كثير في رحابه أرسالًا، نساءً ورجالًا، واشتد ساعد المسلمين، وقويت عزائمهم، وصبروا على احتمال الأذى أكثر مما صبروا، وتعالى جهدهم، وتماسك جمعهم، وتحقق لهم ما كانوا قصدوا إليه واستهدفوه، وأتم الله تعالى على رسوله ﷺ نعمةَ ما كان يبغي من استسراره بدعوته في مطلعها، ذلك الاستسرار الذي استمر قريبًا من ثلاث سنين، كانت محضنًا لتربية الرعيل الأول من كتائب الإسلام.

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يجهر بدعوته، ويخرج من

(٣) الأيد: القوة. (المجلة).

(٤) أفكل: أي رِعدة، ولكن لفظ (أفكل) مذكر. (المجلة).

استخفائه، ويعلن عن رسالته، ويصدع بحقه باطلَ المضلين المبطلين، ويشقق بصوت دعوته قلوبَ أهل الشرك وعبيد الوثنية.

منهج الجهر بالدعوة:

وكان من ألطاف التسديد الإلهي، وسياسة الحكمة التي جرى عليها رسول الله ﷺ في تبليغ دعوته وسير رسالته أن جعل الجهر بها يسير في طريقين متوازيين، تمشيًا مع سياسة الاستسرار وتحقيقًا لحكمته في تقوية الدعوة بإقبال المستعدين بنقاء فِطَرِهم إلى قبولها والدخول في ساحتها مسالمين، لا يثيرون العوائق في طريقها.

الطريق الأول في الجهر بالدعوة

حكمة البدء بإنذار الأقربين:

كان هذا الطريق الحكيم المحكم هو الاتجاه بالدعوة في علانيتها هو الجهر إلى عشيرة النبي ﷺ الأقربين، فأنزل الله عليه ﷺ بعد أن اشتد ساعد الدعوة، وبلغت أشدها، ووقفت على قدميها، تعلن عن نفسها في قوة وصبر، قوله تعالى:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾

(الشعراء: ٢١٤ - ٢١٧)

ذلك أن التوجه بالدعوة إلى الأقربين -وإنذارهم بطش الله وتخويفهم بأسه ونقمته إذا لم يستجيبوا إلى هدى الله والإيمان به، وإخلاص العبودية له تعالى، بخلع الأنداد والشركاء، والتطهر من أدران الوثنية- فيه حسم لأطماع الأبعدين؛ لأن الناس بمقتضى طبائعهم البشرية إذا رأوا رسول الله ﷺ يبدأ أول ما يبدأ معلنًا دعوته بإنذار أقرب الناس إليه، وتخويفهم، والتبري من أعمالهم إذا لم يستجيبوا إلى داعي الإيمان والهداية كان ذلك أدعى لغيرهم من الأبعدين أن لا يطمع منه ﷺ في مهادنته، فضلًا عن المداهنة، وهذا -بلا شك-

أقوى وأوكد للدعوة في بيان إصرارها وعمومها، وأبلغ في النفوس أثرًا؛ لأن الإنذار والتخويف قد يدفع إليهما الإشفاق، وقد يدفع إليهما الحرص على تنبيه المشاعر والإحساسات الوجدانية في مداخل النفس الإنسانية لتوكيد أواصر القربى، وقد يدفع إليهما تحريك الحمية القومية وروابط القربى العصبية، نفورًا من قبول الضيم في الصبر على أذى القريب لا سيما في البيئات العربية التي تتعزز بنصرة القربى.

أظهر شواهد تجلي هذه الحكمة النبوية في وقائع التاريخ:

وأظهر شاهد على ذلك ما وقع فكان سببًا لإسلام حمزة بن عبدالمطلب عم رسول الله ﷺ كما بينا ذلك في قصة إسلامه رضي الله عنه، فقد كان الداعي الأول إليه هو الحمية القومية الغاضبة لدفع الإساءة التي وجهت ظلمًا لابن أخيه محمد ﷺ من أحد أحلاس الغرور الوثني الفاجر، ولكن الله تعالى في تقديره الأزلي وغيبه المحجوب عن رؤى الناس، جعل من هذه الحمية العصبية الخير كله لحمزة رضي الله عنه وللإسلام والمسلمين، فأسلم حمزة لما أراده الله به من المنزلة التي لم تسامها منزلة في فضلها وشرفها عند الله فكان بها حمزة سيد الشهداء.

وكذلك ما وقع في جميع مواقف أبي طالب وحدبه على رسول الله ﷺ وحمايته له أن تمتد إليه يد بأذى، وقد جعل نحره دون نحر رسول الله ﷺ فداء لابن أخيه بدافع العصبية القومية والحمية القبلية، وظل على ذلك إلى آخر لحظة من حياته، وهو على دين قومه، وكانت قريش كلها تهاب أبا طالب وتحترمه، وتحسب لوجوده إلى جانب ابن أخيه محمد ﷺ حسابًا منعها أن تقتحم حمايته ومنعته.

ومن أظهر شواهد ذلك موقف سائر المنافقين عامة وخاصة من بني هاشم والمطلب -إلا ما كان من أبي لهب- وكانت كثرتهم على جاهليتهم في عقيدة الشرك والوثنية التي جاءت رسالة محمد ﷺ لهدمها وتقويض معالمها.

ذلك الموقف الذي تجلى في حادث الحصار والمقاطعة ودخول شِعب أبي طالب، وكتابة صحيفة المقاطعة التي تعاهدت فيها بطون قريش على مقاطعة كل من دخل مع رسول الله ﷺ الشعب مقاطعة تامة، وحصرهم حتى لا يصل إليهم شيء من ضروريات الحياة.

روايات البدء بإنذار الأقربين:

وقد قام رسول الله ﷺ بأمر الله تعالى، فأنذر أدنى الناس قرابة منه، روى البخاري ومسلم أنه لما نزلت:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾

الآيـات صعـد النبي ﷺ الصفـا، ثم نادى «يـا صباحاه!» فاجتمـع الناس إليه بين رجل يجيء إليه ورجل يبعث رسـوله، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بسفح هذا الجبل، تريد أن تغيـر عليكم، صدقتموني؟» قالوا: نعم قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾

دعا رسـول الله ﷺ قريشًـا، فاجتمعوا، فعمَّ وخصَّ، فقال: «يـا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسـكم مـن النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسـكم من النار، يا بني عبد شـمس أنقذوا أنفسـكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشـم أنقذوا أنفسـكم من النار، يا بنـي عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها».

وأخرج مسلم -أيضًا- أن رسول الله ﷺ قام فقال: «يا فاطمة ابنـة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ما شئتم».

وهـذه الأحاديـث وغيرهـا فـي معناهـا كثير، مـروي في الصحيـح وفي غيره، وهي تفسـر ما قام به رسـول الله ﷺ في تنفيذ أمر ربه بإنذار قرابته، وتبيِّن أن أحدًا كائنًا من كان قريبًا أو بعيدًا لا يخلّصه من عذاب الله وسـخطه إلا إيمانُه بربه، وأن الناس جميعًا في هذا سواسـية، لا تنفع قريبًا قرابته، ولا يضر بعيدًا بعده، فالخلق كلهم عباد الله وعياله، فمن آمن منهم بالله ورسـوله ﷺ كان عند الله برًا تقيًا، ومن لم يؤمن بالله ورسوله كان عند الله فاجرًا شقيًا.

هـذا هـو الميزان الـذي أقامه الله لـوزن عباده عنـده، قربًا وبعدًا، ورحمةً وسخطًا، وهو زبدة قوله تعالى:

﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾

(الحجرات: ١٣)

وفـي قوله ﷺ: «إن لكم رحمًا سـأبلها ببلالها» بيان أن الـذي يملكـه ﷺ لأقرب قرباه هو الصلة فـي الدنيا بمتاع الدنيـا؛ ولهذا جاء مفسـرًا في الحديـث الثاني فقال ﷺ: «سـلوني من مالي ما شـئتم» فـكان ذلك بيانًـا لما يملكه رسـول الله ﷺ مـن صلـة الـود والقربى فـي الدنيـا، وأن الخـلاص من دينونة الله تعالى لا يكـون إلا بالإيمان به إلهًا واحدًا، وإخلاص العبودية له، وأما شفاعته ﷺ في الآخرة،

فهي للمؤمنين خاصة، فلا يشفع النبي ﷺ لكافر قط، شفاعة تنقذه من عذاب الله، وتخرجه من النار، وتدخله الجنة، مهما تكن قرابته منه.

***

نظرة تحليلية في آيات البدء بإنذار الأقربين:

وفي الآيات الكريمات من سياسة الدعوة إلى الله، وراء إنذار الأقربين برًا بهم وتحريكًا لدوافع حمية القربى فيهم، الأمر بالإلانة الجانب لعموم المؤمنين، سواء منهم من قَرُبَ في نسبه وعصبيته أو بعد، وهذا بيان لمكانة الخلق كلهم من ربهم، فهم جميعًا عباده، وليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب ولا قرابة حسب، وإنما هو الإيمان والعمل، وفي هذه الدائرة يختلف الناس اختلافًا واسعًا عريضًا في درجاتهم ومراتبهم من رضاء الله وإسعاده.

وفي الآيات تلطف بالذين يستجيبون إلى دعوة الإيمان، ويتبعون الرسول ﷺ تقوية لأواصر القرب الروحي وأخوة الإيمان، وأنها هي الأخوة التي اعتبرها الله تعالى صلة بين سائر المؤمنين كما قال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

(الحجرات: ١٠)

لأن ذلك يربط قلوبهم بالدعوة، ويملؤها بمحبة الداعي، ويعد نفوسهم للدفاع عن تبليغ الدعوة وافتداء الداعي والدعوة بكل ما يملكون من قوة وعمل.

وفي الآيات إعلان البراءة من عصيان من عصى، ولو كان أقرب القربى، فمن ساء عمله فلن يضر إلا نفسه، وإن قرابته من رسول الله ﷺ لا تحميه من سخط الله وعذابه.

وفي قوله تعالى:

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

(الشعراء: ٢١٦)

لطيفة بيانية من لطائف الأسلوب القرآني، فقد عُلِّقت البراءةُ في الآية بعمل من عصى، ولم تعلق بشخصه وذاته، ولم تقل الآية: فقل: إني بريء منكم؛ لأن ارتباط البراءة بالعمل دون ذوات العصاة وأشخاصهم لا يقطع أواصر القربى والبر بها في الدنيا، والعود إليها بالإحسان إليها في الدنيا والدين إذا عادت إلى الإيمان والطاعة للرسول، والإيمان هو الموجب للموالاة.

وفي ذلك تقرير لمبدأ اجتماعي عظيم، تقوم عليه دعائم الحياة الاجتماعية في الإسلام؛ لأن ربط الموالاة والنفرة

بالعمل دون الأشخاص والذوات يفتح باب الأمل أمام الشاردين من دعوة الإيمان والطاعة لله ورسوله.

فالإنكار في الآية، والأمر بالبراءة إنما توجه إلى العمل السيئ، لا إلى العامل المسيء، وإن كان عمله السيئ مرتبطًا به ما دام مقيمًا عليه، لكن هذا الارتباط بين العامل وعمله ليس ارتباطَ تلازم، ولكنه ارتباط بأمر عارض يمكن الانفكاك عنه وتركه.

فإذا ترك العمل الموجب للنفرة، وحل محله عمل يوجب الموالاة عادت الموالاة وعاد معها ما توجبه من التلطف وخفض الجناح وإلانة الجانب، وصفاء المودة.

وفي قوله تعالى:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

(الشعراء: ٢١٧)

ختامًا لآيات الأمر بالجهر بالدعوة وإنذار الأقربين؛ إشعارٌ بما في هذا الجهر والإنذار من مشقة التبليغ، وأثقال المواجهة، وإيذان بما سيلقى رسولُ الله ﷺ من أذًى وصد عن سبيل دعوته ومقاومة له، ومناهضة لرسالته من هؤلاء المنذَرين على قرابتهم، وتشابك أنسابهم بنسبه، وامتزاج عصبيتهم بحسبه، حتى لا يعتمد في

تحمل أثقال دعوته إلى الله، وفي صبره على ما يلقى من المعاندين الشاردين عن حظيرة الإيمان والهداية ولو كانوا أقرب القربى، على غير الله القويّ القهار، العزيز الذي لا يُغالَب، الرحيم الذي لا يقطع إمداده عنه، وعن جميع حملة رسالاته، ووارثي عبء تبليغها من الدعاة الصادقين، والعلماء العاملين.

وهذا درس إلهي من أبلغ وأعمق دروس تربية الرسول ﷺ في تجرده تجردًا كاملًا من خطرات الاعتماد على قرابة أو عصبية؛ لأن روابط القرابة وحمية العصبية قد يعرض لها من ظواهر البيئة، واهتزازات المجتمع ما يفكها، ويزيل وصائلها، ولأن حمية العصبية قد يعرض لها من أسباب تنازعها ما يطفئ شعلتها، ويُظْلِمُ قبسها، ويذيب وشائج تماسكها، ويحيلها أداة إزعاج، وذلك كما وقع من أبي لهب عم النبي ﷺ، فقد كان دون سائر بني عبد المطلب أعدى أعداء الدعوة الإسلامية، وأشد أعدائها أذًى لرسولها ﷺ؛ لأن قرابة أبي لهب من رسول الله ﷺ تعرضت لظاهرة أفقدتها حيويتها في نفسه وشعوره وحسه، تلك الظاهرة -في رأينا- هي ارتباطه بالأسرة الأموية أو العبشمية ارتباطًا امتزاجيًا،

فقد كانت تحته زوجةً له وأمًا لأولاده- العوراءُ أمُّ جميل أخت أبي سفيان بن حرب الذي ظل قائدًا لجيوشِ مناهضةِ الدعوة الإِسلامية طوال زمن الكفاح والنضال، حتى أرغمته انتصارات الإِسلام على الدخول فيه، ومات أبو لهب مراغمًا مقهورًا، وكانت العوراء امرأة أبي لهب أسوأ مَثَلٍ لأخبث عداوة لرسول الله ﷺ، وكان آلُها من العبشميين عامة والأمويين خاصة هم حاملي لواء مناهضة الإِسلام ورسالته، يكيدون لرسول الله ﷺ، ويؤذونه، فانزلق أبو لهب بحكم سيطرة زوجه العوراء على تفكيره ومشاعره، فأهدر عصبيته النسبية، وأمات في نفسه نخوة الحمية البيتية، وانفرد عن سائر إخوته وبني عمومته من الهاشميين، بإِعلان أخبث العداوة لابن أخيه محمد ﷺ الذي كان أعز وأحب إلى أعمامه من أنفسهم وأولادهم، فقد نشر هذا المَتْبُوب(٥)، لواء العداوة للإِسلام ونبيه ﷺ منذ اللحظة التي اصطفاه الله منها نبيًا، ثم بعثه إلى العباد رسولًا.

وقد تجلى ذلك في أول موقف وقفه النبي ﷺ لتنفيذ أمر الله تعالى له بالجهر بالدعوة، وكان المتبوب أبو لهب شر

(٥) التَّبُّ: الخُسران أو الهلاك. (المجلة).

خلق الله موقفًا من الدعوة الإسلامية، كان يتبع النبي ﷺ وهو يمشي إلى منازل الناس ومحافلهم في المواسم يدعوهم إلى الله تبليغًا لرسالته ليصدهم عن الاستماع إليه، ولو لم يكن لهذا الخبيث المتبوب من مواقف الخزي والعار سوى موقفه الذي يدل على فقدانه الشعور بالنخوة الهاشمية، والحمية العصبية، والغيرة النسبية والعزة البيتية بانحيازه إلى بطون قريش وتركه إخوته وبني عمومته يُحصَرون في شعب أبي طالب حصارًا اقتصاديًا قاتلًا؛ لكان هذا حَسْبَه هوانًا وذلة في دنيا الأعزة الأكرمين.

الطريق الثاني

عموم الجهر بالدعوة وقوة أسلوبه:

الجهر العام بالدعوة لكل من يستطيع صوتُ الدعوة أن يصل إليه من الناس. وفي ذلك أنزل الله تعالى قوله:

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾

(الحجر: ٩٤، ٩٥)

وبادَى رسول الله ﷺ سائر قومه، وساكني بلده ومن يَرِدُها في الأسواق والمواسم، بدعوته إلى توحيد الله تعالى، وخلع الأنداد وترك عبادة الأصنام، وصدع بحقه باطلهم، وشقق بقوة عقيدته وتوحيد ربه إهاب وثنيتهم(٦)، ولطم بتبليغ رسالته وجه شركهم، فسمعوا منه، وتحدثوا عنه، ولم يبعدوا عنه في أول ما أعلنهم بدعوته ودعاهم إلى رسالته، ولم يردوا عليه أمره، ولم يعالنوه بشديد العداوة حتى عاب عقائدهم، وسخر من عقولهم، وهزأ بآلتهم، وحط من شأن آبائهم الذين ورَّثوهم عبادة الأوثان، فاتخذوها آلهة مع الله، وتلا عليهم في ذلك من بيان القرآن ما لم يكن لهم به عهد. وما لم يكن لهم معه من صبر، فأعظموا ذلك وأنكروه أشد الإنكار، وحاولوا معه

(٦) الإهاب: الجِلد. (المجلة).

ﷺ أن يكف عن عيب آلهتهم، والسخرية من عقيدتهم، فلم يعتبهم ﷺ، ولم يُقِمْ لعتبهم وزنًا، ولا ألقى إلى إنكارهم عليه بالًا، ومضى رسول الله ﷺ يقرع آذانهم ويدق أبواب قلوبهم، ويغمز عقولهم بقوارع آيات الله تعالى ونُذُرِه وزواجره، من السور المكية من القرآن العظيم، وفيها من التجبيه والسخرية بهم[٧]، وقواطع البراهين على فساد عقولهم ومرض قلوبهم وباطل عقائدهم ما أثارهم على رسول الله ﷺ، فتذامروا عليه وانتهضوا لمقاومته، والوقوف أمام دعوته.

ولكنهم كانوا يرون حدب عمه أبي طالب عليه، ودفاعه عنه، وحمايته له، وهم يعلمون مكانة أبي طالب فيهم، ويعلمون أن بني هاشم وأخواتهم بني المطلب لا يخالفون عن أمره ولا يخذلونه في مواقف الجد ونوازل الأحداث، وأنهم مناصروه على من ناوأه، أو حاول النيل منه، وهم أشد شكيمة في قومهم على من نابذهم العداوة واللدد.

لقاءات بين أبي طالب وزعماء قريش:

فعمدت بطون قريش من العبشميين والمخزوميين، والسهميين والأسديين وغيرهم إلى أبي طالب، يَلْقونه شاكين

(٧) التجبيهُ: الإصابة في الجبهة، ومنها تجبيه الزانيين بتسويد جباههما وإركابهما دابة متدابرين ويُطاف بهما. والمراد هنا الإهانة. (المجلة).

إليه ابن أخيه، ومشى إليه منهم رهط من رءوسهم وزعمائهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة العبشميان، وأبو البختري العاص بن هشام الأسدي والوليد بن المغيرة وأبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزوميان، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، والعاص بن وائل السهميون وغيرهم، فقالوا له: يا أبا طالب: إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه، فقال أبو طالب لهم قولًا رفيقًا وردهم ردًا جميلًا، فانصرفوا عنه.

ولم يبد منه لرسول الله ﷺ شيء يصده عن دعوته.. وتبليغ رسالته، ومضى رسول الله ﷺ قدمًا في طريقه بقوةٍ لا تقهر، وعزيمة لا تفل، فزاد ذلك ملأ قريش سوءًا على سوئهم، وشَري الأمر بين رسول الله ﷺ وبينهم، واشتد التأزم، وملأ الحنق قلوبهم، وتباعد الرجال، وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها، وشنفوا له، وحض بعضهم بعضًا عليه ورأوا أن عمه أبا طالب لم يعتبهم في شأنه، وازداد حدبه عليه، وحرصه على منعه وحمايته.

فمشوا إليه مرة ثانية، يذكّرونه بأمرهم معه، وما قالوه له في شكايتهم أول مرة، ويضيفون إلى ذلك لونًا من التهديد

والوعيد، فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سنًا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين. ثم تركوه وانصرفوا عنه.

حيرة أبي طالب بين حميته وإرضاء قومه:

وفكر أبو طالب ودبر، وقلب الأمر، وعظم عليه هذا الموقف، وكبر عليه فراق قومه، وتمثل طاقته بحربهم، وتبين له أنه لا طاقة له بمنازلتهم، وهم جميعًا إلب عليه(٨)، مجتمعين متكالبين، ولم تطب نفسه بإسلام رسول الله ﷺ إلى هؤلاء السفكة، ولم يرض ضميره بخذلان ابن أخيه الذي أحبه وصب به صبابة لم يكن شيء مثلها لأحد من ولده، ورباه في كنفه، وحنا عليه حنوًا جعله لا يطيق فراقه، وأعزه فوق معزة كل عزيز عنده.

وأي خذلان يكون وراء دعوة ابن أخيه إلى الكف عن تبليغ رسالته؟ ودارت الحيرة بأبي طالب، تشده تارة إلى اليمين، وأخرى إلى الشمال، وعُمِّي عليه أمره، واشتبكت في تفكيره مخارج الرأي، ثم اختار مضطرًا مكرهًا أن يبقي على نفسه مع

(٨) يقولون: هم إلب عليه أي مجتمعون عليه. (المجلة).

قومه، وأن يدعو ابن أخيه إلى الكف عن الإساءة إلى قومه، وأن يترك ما يغضبهم ويثير حفائظهم من عيب آلهتهم، وتسفيه أحلامهم، وتضليل آبائهم.

أما رسالة محمد ﷺ فما يكون شأنها عند أبي طالب، وهو على دين قومه؟ وما مدى ما يبلغ إدراك أبي طالب -في شركه ووثنيته- من حقيقة رسالة محمد ﷺ أيبلغ هذا المدى أن يجعلها في نفسه فوق إرضاء قومه، والإبقاء على نفسه معهم، فلا يفارقهم من أجل أمر هو لا يدين به؟ لا، ذلك طمع في غير مطمع، وخُلَّب بَرْقٍ بين السراب يلمع.

فليعرض الأمر على ابن أخيه، وليشعره بوعيد قومه وتهديدهم، عسى أن يلين جانبه، فأرسل إليه، وقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، وأشار إلى تهديدهم وتوعدهم إياه، وإنذارهم له بالمنازلة والحرب المبيرة التي لا تُبقِي عليه وعليهم، ثم استعطفه فقال: فأبق عليَّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق.

عزيمة النبوة أنقذت أبا طالب من حيرته:

أخرج الطبراني وأبو يعلى عن عقيل بن أبي طالب قال: جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا له: يا أبا طالب، إن ابن أخيك يأتينا في أفنيتنا ونادينا فيسمعنا ما يؤذينا به، فإن

رأيت أن تكفه عنا فافعل، فقال لي: يا عقيل: التمس لي ابن عمك، فأخرجته من كبس -بيت صغير- من أكباس أبي طالب، فأقبل يمشي معي، يطلب الفيء يمشي فيه[٩]، فلا يقدر عليه، حتى انتهى إلى أبي طالب، فقال أبو طالب: يا ابن أخي، والله ما علمت أن كنت لي مطيعًا، وقد جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم في كعبتهم، وفي ناديهم، تسمعهم ما يؤذيهم، فإن رأيت أن تكف عنهم؟ فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: «والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار».

فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي قط، ارجعوا راشدين. وأخرج البيهقي في الدلائل نحو ما ذكره ابن إسحاق في سيرته، وفي هذه الرواية أن أبا طالب قال للنبي ﷺ بعد أن ذكر له قومه في شكايتهم: فأبقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك.

فظن رسول الله ﷺ أن قد بدا لعمه في شأنه أمر وأنه خاذِلُه ومسلِمُه، وأنه ضَعُفَ عن القيام معه، وعن حمايته، ونصرته،

(٩) الفيء: الظِّل. (المجلة).

فقــال له رســول الله ﷺ «والله يــا عم، لو وضعوا الشــمس في يمينــي، والقمــر في يســاري، علــى أن أترك هــذا الزمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته».

ثم اســتعبر رســول الله ﷺ فبكى، ثم قام، فلمــا ولَّى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه رســول الله ﷺ فقــال له أبو طالب: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا.

العجز عن التعبير أبلغ من التعبير العاجز:

وهنا يقف القلم عن الحركــة، فيجمد بين أناملي، ويجف مداده، ثم تعود إليــه الحياة فيرتجف ارتجاف الطائر الذبيح، وعهــدي به طيع ســلس القيــاد، ريان الفــؤاد، بليــل المداد، جــوَّالٌ ســيال، لا يتوقــف إذا أريد على الحركــة، يجوب آفاق الفكر، ولَّاجٌ إلى مداخل خباياها، صعَّاد إلى شواهقها، عليهم بأوديتهــا، فما له هكذا يجف ويضطرب تــارة؟ وما له يجمح ويستعصي عن المقادة تارة أخرى؟

رويدك يا (قلم) أفتراني أكرهك على أن تملك فوق طاقتك فتصور مرآة الوجود في قرطاس الحياة؟ أم تراني أســتننزل لك الشــمس من عليائها لتكتــب بمداد أضوائهــا خلجات أعظم نفس في الوجود في أحرج لحظة تمر بالحياة؟

هـون عليك يا (قلـم) وهدئ من روعـك فلا تضطرب بيـن أناملي، فليـس عيبًا أن تعجز عن تصويـر ما ليس في دائـرة الإمكان تصويره، ولا أن تعجز عـن أن تبرز ما ليس بمسـتطاع إبرازه، ولئن عجزت أسلاتك(١٠) عن تصوير ما يـدور في روعك مـن خلجات الإعجاز الكونـي، مُمَثَّلًا في طوايا شـخصية محمـد الأمين ﷺ فلك أسـوة في الفكر، وهـو أرحـب منـك منطلقًا في عجـزه عن تصويـر ذرة من خلجات هذا الموقف المعجز في تعبيره عن نفسـه بمنطق صمته.

إي وقهـرِ الله لخلقـه إن ذلك لحـق! وماذا يكتـب القلم؟ وماذا تسـتطيع القرائح القُرَّح أن تملي عليه من حقائق الغيب المستقرة في ضمير محمد ﷺ ساعتئذ؟

أترى لو كانت خيوط أشعة الشمس أقلامًا ولعابها الملتهب مدادًا لهذه الأقلام أفكانت مستطيعة أن تعبر عن موقف محمد ﷺ فـي تلك اللحظات تعبيرًا يصور بعض ما جال في خواطره ﷺ، وسبح في حنايا نفسه؟

---

(١٠) أسلاتك: جمع أَسَلَة. والأسَلةُ طرف اللسان. وهو هنا يخاطب القلم. فالمراد ريشة القلم أو سنه المستدق. وفي الكلام مجاز، حيث شبه القلم باللسان. (المجلة).

عزائم المرسلين أرسخ من الرواسي الشامخات، فكيف بعزيمة سيدهم؟

محمد رسول الله ﷺ يأمره الله تعالى أن يصدع بما يؤمر، وأن يعلن دعوته، ويجهر بتبليغ رسالته، ويأمره أن يُعْرِض عن المشركين المستهزئين به وبدعوته، وأن يجعلهم نبذًا ملقى وراء ظهره، ومواطئ أقدامه، فلا يبالي بهم، ولا يقيم لزمجرة طغيانهم وزنًا، ولا يفرض لوجودهم أمام عزيمته قدرًا، ولا يحسب لهم حسابًا يصده عن المضي في عزيمته، مبلغًا رسالة ربه، منذرًا بطشه ونِقَمَهُ لمن لم يستجب لندائه ودعوته.

فيمضي محمد ﷺ قُدُمًا معلنًا عن دعوته بكل ما يملك من وسيلة يعرفها الإعلان والجهر في مجتمعه وبيئته وبلده وقومه، يناديهم وجه النهار من ذُرى الجبال: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

سبحات في رياض هذا الموقف الفريد:

وكان له ﷺ في حدب عمه عليه وقيامه معه، ودفاعه عنه، وحمايته له، ومنعته أن يؤذى، عزاءً وقوة، فيمشي إلى هذا العم ملأ قريش وطغاتها وذوو رأيها وغطارفها وزعماء دينها ودنياها، وهذا العم كان على ما هم عليه من باطل الكفر وضلال الشرك والوثنية، يطلبون إليه وهو في سنه وشرفه فيهم أن ينهى ابن أخيه عن قوله في عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم

ودعوتهم إلى عبادة الله وحده وخلع الأنداد والشركاء، أو يخلي بينه وبينهم فيكفونه مؤنة هذا الموقف الآزم.. بقتل محمد ﷺ ويسدل الستار على الرواية، وينتهي العرض، ويتفرق المتفرجون إلى مجالس سمرهم، يهجرون بما كان وما يكون، وهذه دائمًا نهاية كل تفكير يستمد جذوره من الجوع والشبع، وأصحابه يعيشون ببطونهم لبطونهم، فهو تفكير ضحل ساذج، بل تفكير طفلي، لا يعدو أن يكون عبثًا من (أعباث) الإنسان في مهد الحياة، فلا وزن عند أصحاب هذا التفكير البليد للرسالات الإلهية، ولا علم عندهم لحقائق هذه الرسالات وأهدافها في الحياة، ولا أدنى معرفة لديهم لمكانة رسل هذه الرسالات في الحياة، ولا تقدير لعزائم أولئك الرسل التي يولدون بها، وينشئون عليها، ويعملون بقوتها.

ويسمع أبو طالب ما عرضه عليه عباهلة قومه[11]، فتأخذه الحيرة، ويملكه الذهول، فلا يدري أيقدم أم يحجم، فهؤلاء قريش، وغطارفة الحرم وعظماء مكة، وسدنة أموالها وتجارتها، يأتون إليه في إجماع يخيرونه بين خصلتين الموت أهون من قبول إحداهما.

---

(١١) العبهل: يقولون هو ملك معبهل، أي لا يُردُّ أمره. (المجلة).

يخيرونــه بيــن أن ينهى ابــن أخيه نهيًا يصده عــن قوله في تسفيه أحلامهم، وعيب آلهتهم، وهذا يعني في نظر الواقع أن يترك محمدٌ ﷺ رسـالته، ويتخلّـى عن دعوته، وهذه هي التي لا شـوى لها، أو يسـلمه إليهـم يقتلونه، وهـذه -في نظر أبي طالب- هي الموت الأحمر.

وبيـن أن ينازلوه بالحرب حتى يهلك الفريقان أو أحدهما، وهـذه التي لا يطيقها أبو طالب وهو في مكانه من بني هاشـم سنًا وشرفًا وعزًا وطاعة.

وتذهـب الحيرة بأبي طالـب مذاهب من الشـك والتردد، والضعـف والتخاذل تارة، ومن العزم والقـوة تارة أخرى، فقد عظم عليه فراق قومه ومنازلتهم وعداوتهم فضعف واستخزى، ثم داخلته نخوة العصبية الهاشمية فلم تطب نفسه بإسلام ابن أخيـه الـذي أحبه وأعزه، وربـاه، وقام معه وحمـاه، إلى القوم يقتلونه.

وأي أرض تقله؟ وأي سماء تظله؟ وأي دار تئويه؟ وأي حياة له ولبني أبيه بين قريش إذا أسلم محمدًا ابن أخيه لأعدائه؟

وفـي حومـة هـذا الموقـف الآزم أصابت الشـيخَ في غمرة الهرم نفحةٌ من عذاب الحيرة الخانعة، والشـك المذل، ودعا بابن أخيه محمد رسـول الله ﷺ وقـال له: إن قومك جاءوني،

فخيروني بين موتتين: موتة ذليلة، يبقى ذلها ما بقيت الحياة، لا يفارق عارُها هاشـميًا أبد الآبـاد، وموتة عزيزة، يبقى عزها ما بقي الخلود.

ثـم زاده فـي حديثه فكشـف له عـن ميله ورأيه فـي تفادي الموتتين، فقال خانعًا متخاذلًا وهو يحشرج: فأبقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تحمِّلني من الأمر ما لا أطيق.

وكان طبيعيًـا أن يحس محمد ﷺ أمام حشـرجة عمه بهذا الـرأي الذليـل المتخاذل ضعف موقـف عمه، فتبـادر إليه أن عمـه قد بدا له رأي جديد في موقفه منه، ومن نصرته، ومنعته وحمايتـه التي كان يحوطه بها، وأنـه خضع لبعض الأمر فيما عرضه عليه قومه.

محمـد ﷺ يملي على الحياة كتـاب إنقاذها من ذل الاستعباد:

لحظة واجمة كأنما أحست الحياةُ فيها أن الفلك قد توقف عـن دورانه، فعبرت فيها خواطر محمد ﷺ محيط دنيا الناس والأشـياء إلى عبـر الوجود اللانهائي، ورأى وسـمع، ثم أملى علـى الكون، وهـو يصغي إليـه، كلمَتَه الفذة المعبـرة، التي ترجمتها إحسـاساته، وعبرت عنها مشـاعره أصـدق تعبير، ودمعـه يتحلب من عينيه، مسـتعبرًا يبكي رثـاء ورحمة لهذه

الحياة المظلمة، التي جاءها لينيرها فتأبى إلا أن تعيش في الظلام أبد الدهر.

بيد أن محمدًا ﷺ كان قد أعطي المصباح مضيئًا فلا يطفأ حتى تُستَنزل الشمس فتوضع عن يمينه، ويُستَنزل القمر فيوضع عن يساره، ويتغير مسار الكون في مواقع شموسه وأقماره ونجومه وأفلاكه، وهذا فوق المحال بمحالات.

ولكنها عزيمة محمد ﷺ تأبى إلا أن تقول لحياة الظلام: لا، وفي يدي المصباح مشتعلًا بضوء الهداية، لا بد لهذا الظلام أن يتبدد، وأن يملأ نور الله آفاق الحياة فيضيء السهل والجبل، ويغمر الأودية والشواهق، ويدخل البيوت، ويسري في الطرقات، ويتولج في حنايا النفوس، وزوايا الضمائر، ويدلف إلى القلوب والعقول، ويوقظ الحياة من سباتها، ويصبح الكون كما أراده الله مسخرًا للإنسان يستخرج آياته، ويكشف أغطية الجهل وظلام الوثنيات عن أسراره، ويعرف الإنسان حقيقته في هذه الحياة، ويعرف ربه حق معرفته، ويكفر بالطاغوت، ويؤمن بالحق والعدل؛ ليصحح وجوده ووجود الحياة كلها لتخوض بحار العلم والمعرفة، وتسبح في محيطاتها، وتطير في أجوازها بأجنحة من فيض الله وأمره.

دمعة محمد ﷺ كانت مدادًا لكتاب إنقاذ الحياة من مهانة الذل:

لقد كانت عبرة محمد ﷺ وهو يسمع من عمه صوت حشرجته ذليلًا خَزْيان مستسلمًا لتلك الأشباح النَّخِرَة من رءوس الكفر والضلال، أعظمَ تعبير عن موقف كان فيه الحد الفاصل بين أن تمضي الدعوة إلى توحيد الله، وتطهير الأرض من رجس الشرك، في طريقها راسخة الدعائم، قوية العزائم، لا ترهب الموت تلقاه وهي في مسيرها، ولا تبالي الفوادح تصيبها وهي تسري دءوبة إلى القلوب والعقول، لا يعوقها عن مسيرها أصوات ارتطام الغثاء بشاطئ الفناء، وهو مدفوع بمد أمواج البأو الأجوف والغرور الأخرق، ولا يصدها عن وجهها حشرجة الاستسلام والاستخزاء تنكص بهذا الشيخ المُعَنَّى الذي كان تُكَأَةً لحماية الدعوة حتى تقف على قدمين، وتسري بقوتها الذاتية إلى المشرقين والمغربين، وإذا به في لحظة وعيد وتهديد من الأشباح النخرة، يتخاذل، ويتخلى عن مكانه في شرف الحمية العصبية والعزة القومية.

وبين أن تقف هذه الدعوة عن سيرها وتعجز عن الحركة وتتبدد مقوماتها، ويتركها حامل أثقالها وأمين أماناتها هملًا وعجزًا عن أدائها في غير حماية العصبية المتهاوية على لسان

الشـيخ المتآكل هرمًا، وهـو ينظر إليها يكنِّفهـا الظلام حتى يواريها الفناء.

وهكـذا كان يتصـور أعجاز النخـل الخاوية التـي تحملها أعنـاق الملأ من عباهلة قريش وغطارفها الذين مشـوا إلى أبي طالب متوعدين مهدديـن، يتحرجونه ويضيقون عليه الخناق لينفـض يده من حماية ابن أخيه الذي قام ليهدم بمعول دعوته صـرح وثنيتهـا المتداعية في بلادتهـا المتهاويـة بجهالتها، المتهالكة بحماقتها.

ولكـن (دمعـة) محمـد ﷺ وهو يسـمع من عمه الشـيخ كلمتـه المتخاذلـة كانـت مـدادًا لكتـاب، معبرًا أبلـغ تعبير وأعمقـه وأقـواه عن عزيمـة ماضية في قهرها لقوى الشـر، لا تعـرف التوقف والتردد، ولا تعرف المداهنة ولا المهادنة، بل تمضي قدمًا، تنشر رايتها خفاقة على آفاق الحياة.

لقـد أملى محمـد ﷺ (سـطرًا) من كتـاب إنقـاذ الحياة بمداد (دمعته) في كلمته التي أجاب بها عمه، فكانت عنوانًا لكتـاب عزيمتـه، وطوى سـائر صفحات الكتـاب في صدره ليلقيها على مسامع الكون في مناسباتها كلمة كلمة، وسطرًا سـطرًا، وصفحة صفحـة في مجالات عزائمـه القاهرة وإرادته المصممة الباهرة.

وانصرف محمد ﷺ عن عمه الذي كان يترنح ذهولًا يتفاعل في مداخل نفسه فيذيبها ألمًا وحسرة، موليًا عنه لا يأسى على فائت، ويترك عمه غرقًا في بحار تأملاته في كلمة محمد ﷺ التي لم يسمعها من قبل، ولم يعِشْ جوها الأعلى قط، وسرعان ما يتغير الموقف وتسري نفحة من عزيمته ﷺ التي سطَّرتْ كتابها (بدمعته) وينتفض الشيخ المترنح في ذهول وكأنما خُلق خلقًا جديدًا، وزايلته كبرة الهرم، وعاد فتيَّ العزيمة وامتلأ قلبه قوة، وإرادته أنفة، وراجعته عزة العصبية، فنادى ابن أخيه، وقال له: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا.

العظماء لا يبكون خوفًا، ولكنهم يبكون رحمة وإشفاقًا للإنسانية المعذبة في الأرض:

وي!! أهكذا تصنع (دمعة) تنهمل من عين باكية رحمة لقطيع الإنسانية تسوقه وحوش الطغيان، يحدوها نهم التكالب المادي وجشع التزاحم على حطام الدنيا وسُحْتِها الذي تمتص به دماء القطيع حتى تنشِّفَه، فتجعله أشباحًا من جلود تكسو عظامًا نخرة، قبل أن تسلمه إلى الجزار في مجزر الظلم والطغيان والفجور.

ولكــن الفارغين من معاني الحياة، الجاهلين بأقدار عبرات العظمــاء ودموعهم، فضلًا عن عبرة أعظــم العظماء ودموعه، محمد ﷺ يسـكبها حسـراتٍ على هـذه الإنسـانية المعذبة فـي الأرض، وهو رسـول إنقاذهـا- يُنغِضون رءوسـهم جهالة وتعجبًا، ويقولون في أنفسهم: ما هذا الخيال الفضفاض؟ ولا والله مـا خِلتُ ولا تخيَّلتُ، ولكني عرفت وتحققت، وإلا فأي فرق بين دمعة تنهمل من عين كسـيرة، ذليلة، خانعة، تسـام الخسـف فترضـى، ودمعة من عيـن تخلت عنهـا جميع قوى الأرض، منحـازة إلـى وادي الظلم والظـلام، وتحالفت ضدها كتائـب شـياطين الأرض ومردة الآفاق، وصاحـب هذه الدمعة الحسـرى وحيد منفرد، واقف على شـفير هذا الوادي الظلوم المظلم، يعج بأشـباح الفجـور والطغيان، بيده شـعلة الحياة مشـرقة مضيئـة يتلألأ نورهـا، ينادي نسـائم الحيـاة: هلمُّوا إليَّ أَهْدِكُمْ سـبيل الرشـاد، فيكون جزاؤه منه أن يرسلوا عليه وحوشـهم ليأخذوه لو اسـتطاعوا ولن يسـتطيعوا إلى واديهم الظلوم المظلم، فيأسـى لهـم، وتكاد نفسـه الكريمة تذهب حسـرات عليهـم، وتنهمل من عينه (دمعة) راحمة مشـفقة، يسري أثرها إلى من كان قد هم أن يرمي بنفسه إلى ملأ الكفر والفجور ناسـيًا حميته ونخوته، وإذا به ينتشـي من رشح تلك

الحمية، وتثور نخوته المدافعة، ويتبدل في إرادته وعزيمته خلقًا جديدًا، تتقمصه قوة عارمة، لا تبالي جموع الطغيان وشياطين الأرض، وكأنه بهذه العزيمة يمسح أعز (دمعة) من أعز عين، ويقول: يا ابن أخي، اذهب في مسالك الأرض وفجاجها، وقل ما أحببت على ما سمع من كره ومن أحب، فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا.

قوة عزيمة رسول الله ﷺ تقلب الموقف على زعماء الوثنية:

ويسرِّي عن النبي ﷺ ما كان قد ألمَّ به وتزداد عزائمه قوة وإرادته صمودًا إلى أهدافها، ويمضي قويًا قادرًا ومقدرًا في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته، يؤم القبائل والبطون في منازلهم ومحافلهم، وفي الأسواق والمواسم ومجامع الناس يدعوهم إلى الله، وتملأ صيحة الحق آذان قريش فتصكها صكًا يذيب صماخها، ويذهب بها الحنق والتغضب كل مذهب إلا أن تذكر وعيدها وتهديدها أبا طالب بمنازلته إن لم ينه ابن أخيه عن تسفيه أحلامهم، وسب آلهتهم وعيب آبائهم، فهذا شيء نسيته أو تناسته أو جبنت أن تذكره أمام نفسها؛ لئلا يغري بها سفهاءها وتكون لهم عليها به حجة.

وازدادت حمية أبي طالب في حدبه على رسول الله ﷺ وحمايته والقيام معه والوقوف إلى جانبه ومنعه من أعدائه وأعداء دعوته، وأشعل موقفه هذا نار الحمية في صدور بني هاشم، ووقفوا إلى جانبه عصبية لشيخهم أبي طالب.

ذكر ابن إسحاق أن أبا طالب قام في بني هاشم وبني المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه إلا ما كان من أبي لهب عدو الله.

ولكن بلادة الطبع في ملأ الوثنية المادية من غطاريف قريش، وجمود عقولهم، وتحجر مشاعرهم وإحساساتهم، وتلوث فطرهم، وموت قلوبهم، وعمى بصائرهم وجهالة مجتمعهم عدلت بهم عن موقف الشدة مع أبي طالب، وقد فقدوا شجاعة المواجهة بمنازلته إذ رأوه يجمع أمره على الاستهانة بوعيدهم الأجوف، وزمجرتهم الكاذبة؛ لأن كفكفة (دمعة) ابن أخيه أعز وأغلى وأرفع ميزانًا في حياته، وأجلّ قدرًا عنده من قريش وعباهلتها، وأقوى أثرًا في نفسه من قوتها وجبروتها، فلتفعل قريش بقوتها وغطرستها ما تشاء، فلن تستطيع أن تنال من محمد ﷺ منالًا، وأبو طالب حي يمشي على أرض مكة، وفي رجال بني هاشم عين تطرف.

وتخاذلت قريش، وداخلها الجبن والهلع، وراح ملؤها في تفكير بليد، وعقول مأخوذة عن سلامة التفكير، مستغرقة في جهالة جاهلية، لا تعرف من الدنيا إلا أن تأكل وتتجشأ، وترابي وتضارب، وتتكالب على الثراء السَّحوت، الذي تقيس به أقدار الرجال، فالرجل فيهم مهما عظم شأنه وزْنُهُ دية تُقَدَّرُ بقطيع من الإبل والخراف، وليس للإنسان عندهم باعتبار إنسانيته ولا باعتبار فضائله النفسية، وشمائله الخلقية أية قيمة أو تقدير. ومشوا مسربلين بهذه البلادة المتعفنة يهزون رءوسهم لغير شيء، يجرون وراءهم فضضًا من لعنة الله[١٢]، تَحلَّب من صلب لعين، أطعم فأشبع فتجشأ تيهًا وغرورًا، ولان جلده، وبَضُضَ لحمه[١٣]، ولمع شحمه من خلف إهابه، كأنه قعود تَفَرَّد بلبن حلوبة سائمة[١٤]، ترتع في حمى كليب ربيعة، فحسبوه شيئًا في وزن الحياة، وتقدير القيم والأقدار، وجاءوا به إلى أبي طالب في شموخ مأفون، تكسو وجوههم ذلة التخازل، يقولون له: هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه، فلك عقله -ديته- ونصره، واتخذه ولدًا، فهو لك وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف

(١٢) فضَضٌ من كذا: قطعة منه. انظر تهذيب اللغة. (المجلة).

(١٣) بضُض لحمه: كثُر. (المجلة).

(١٤) القَعود: اسم للصغير من الإبل. (المجلة).

دينـك، ودين آبائك وفـرَّق جماعة قومك، وسـفه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل.

أفٍّ لهـذه العقـول البليـدة المتحجـرة و.... علـى تلـك الـرءوس الخاويـة والوجوه الذليلـة: أين وعيدكـم يا أحلاس الجبـن بمنازلـة أبي طالب؟ هـل خلعت عزيمتـه قلوبكم من صدوركم فأصبحتم أشباحًا لا تفقهون؟

إعجاز في التعبير عن قوة إيمان محمد ﷺ برسالته:

لا، ولكن ضياء الحق أعشـى أبصاركـم، وقد كنتم من قبل عُمـي البصائـر، فلم تعرفـوا للحق حقـه، بـل أرعبتكم قوته القاهـرة ممثَّلـة فـي قـوة إيمان محمـد ﷺ وهو يقابـل أفدح محنـة في حيـاة الدعوة، أصدق تعبير، بكلمتـه الفذة التي لم تعـرف الحياة لها مثيـلًا، والتي لم ينطق بها قبلـه بأية صورة من روايتيها لسان، ولا صُوِّرتْ بها عزيمة، على مدى ما عرف التاريـخ من أحـداث؛ إذ يقول فيما أخرجـه الطبراني ردًّا على عمـه في كلمته المستسـلمة حين أخذه الهلـع الجزوع: فأبق علـيَّ وعلى نفسـك، ولا تحمِّلْني من الأمر مـا لا أطيق: «واللَّه -يـا عم- ما أنا بأقدر أن أدع ما بُعِثْتُ به من أن يشـعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار» وإذ يقول فيما رواه ابن إسحاق فـي سـيرته والبيهقي فـي دلائلـه: «واللَّه -يا عم-لـو وضعوا

الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته».

هذا الإيمان الذي امتزج بروح محمد ﷺ وعقله ومشاعره وإحساساته لم تعرف الحياة له نظيرًا في قوته وسطوته، وعلو جهرته.

هذا الإيمان هو الذي رد على أبي طالب شجاعته التي افتقدها في لحظة ضعف أذلته، فقال تلك المقالة المستسلمة المستخزية، فجاء هذا الإيمان مصورًا في كلمة محمد رسول الله ﷺ المعبرة عن عزيمته؛ ليطهر أبا طالب من وضر الاستخزاء والاستسلام، فرجع إلى ابن أخيه بأعظم وأوفر وأقوى مما كان يوليه من الرعاية والحب، ويُضفِي عليه من الحماية والمنعة.

عودة أبي طالب إلى حميته زلزل أقدام الطغيان الأجوف في ملأ قريش:

ولا بد أن يكون قد ترامى إلى الرءوس الخاوية من ملأ الطغيان الأجوف في قريش ما كان بين أبي طالب وابن أخيه من محاورة انتهت إلى عهد موثق قطعه أبو طالب على نفسه لابن أخيه، بأن لا يسلمه إلى أحد وهو يتنفس في جو مكة.

ولا بد أن الرءوس الخاوية قد شعرت بالقوة التي تجددت لدعوة محمد ﷺ في تبليغ رسالته، ولا بد أنها شعرت بالخطر يتهددها في وثنيتها وشركها، وفي طغيانها المادي، وسحتها وربوياتها وتجارتها ومضارباتها، فرجفت بهم الأرض من تحتهم، وهم في مجالسهم وأنديتهم، ونظر بعضهم إلى بعض بعيون زائغة، تدور نظراتها في سهوم وذهول كالذي يغشى عليه من الموت، وتملكهم الهلع والجزع، واستولى عليهم الرعب، واستحوذ على قلوبهم الجبن ومهانة الضعف، وضراعة الذل الحائر، فلم يفكروا قط في تنفيذ وعيدهم وتهديدهم أبا طالب بمنازلته وابن أخيه حتى يتفانى الفريقان، ولكنهم دفنوا رءوسهم الخاوية في رمال المهانة، وتكلموا بغير ألسنتهم بما ليس في قلوبهم، ثم استيقظوا من غطيط نومهم على فحيح الشيطان، وهو يدير رءوسهم بهذه الأقصوصة السخيفة، أقصوصة عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله، هذا الفتى المأفون المأفوك الذي أوقعه أفنه بين فكي الدهاء العَمْري الماكر في أحاديث الهجرة إلى الحبشة حتى قتله شر قتلة.

تقديـر الرجوليـة فـي نظـر الفارغيـن مـن فضائـل الإنسانية:

أهــذا منتهــى تقدير الرجولية فــي نظركم يــا بقايا نفايات فتات الإنسانية المتعفن ؟ تبًا لهذه الحياة إن كان مثلها الأعلى في شــبابها ورجوليتها وفتوة فتيانها – جســامةً بضة، وجمالَ مظهرٍ مائع، وميعةَ شباب تافه، وتمايلَ أعطاف مرذول.

مشــى ملأ الوثينة المادية إلى أبي طالــب منتفخة أوداجهم يقودون فتاهم بشــحمه وبضاضة جســمه وهم يقولون له: قد جئناك بفتى قريش جمالاً ونسبًا ونهادةً، ندفعه إليك، فيكون لــك نَصْرُه وميراثُــه، فخذه وادفع إلينا ابــن أخيك نقتله، فإن ذلــك أجمع للعشــيرة وأفضل في عواقب الأمــور مغبة، ورجل برجل!!

ونظر أبو طالب إلى هذه الأشــباح النخــرة التي تكلمه منذ اليوم، وهي تقود فتاها بنســعة الغــرور الكذوب[١٥]، وحدث أبــو طالب نفســه هامسًــا متعجبًــا من هــذه الــرءوس التي لم تُرَكَّــبْ في تلافيفها أدمغة تعقــل، ولا دُسَّ في صدورها قلوب تفقه، وما قيمة جســامة فتاكم وبضاضة جسمه وجماله وميعة شــبابه، وتمايل عطفيه، وتضاحك شدقيه في ميزان الرجولية

(١٥) نسعة: النسع (سير) عريض تشد به الرحال، والقطعة منه (نسعة). (المجلة).

الجادة؟ وما قيمة ذلك في ميزان الفضائل الإنسانية التي تعتز بهـا الحياة في حسـاب مفاخرها فيمن تدخرهـم لإنقاذها من شروركم؟ أفلا تعقلون؟ بل ما قية فتاكم البض التيَّاه في شرعة وشائج الطبيعة؟ أفلا تفقهون؟

وكان أبو طالب قد استجمع أطراف عزائمه وراجعته حميته لابن أخيه، وزاده هذا العرض السـخيف الأبله قوة وشـموخًا، وتبدَّى له خـذلان الطغيان وابتلاع الملأ مـن قريش تهديدهم ووعيدهـم بمنازلتـه، وأنهـم جـاءوه بدَنِيَّـة الدنايـا، ورذيلة الرذائل، وحطيطة الجبن.

ردٌّ ألقم الفارغين حجرًا غصوا به:

وانتهـض أبـو طالب للـرد عليهـم ردًا بدَّد غرورهـم الأبله وغمز قناة بلاهتهم، فقال لهم: لبئس ما تسـومونني: أتعطونني ابنكـم أغذوه لكـم، وأعطيكم ابني تقتلونـه؟! هذا والله مالا يكون أبدًا.

وفي رواية ذكرها القسطلاني في المواهب عن الإمام مقاتل بن سـليمان أن أبا طالب قال لهم ردًا على عرضهم السـخيف الأبله: حين تروح الإبل، فإن حنت ناقة إلى غير فصيلها دفعتُه لكم، ثم قال لهم أبو طالب: إنكم تسومونني سوم العرير -أي الغريب، الدخيل، الذليل.

وكان المطعم بن عدي، وهو أنف من آناف الكفر الوثني، وطغيان الشرك والجحود، يشهد هذا الموقف ضمن ملأ قريش، فقال لأبي طالب: والله لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا، فقال له أبو طالب: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلايي ومظاهرة القوم عليَّ، فاصنع ما بدا لك.

وشرى الشر، وحقب الأمر، وتنابذ الرجال، وبادى بعضهم بعضًا، وتذامرت قريش على أصحاب رسول الله ﷺ يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله ﷺ بعمه أبي طالب، وقام أبو طالب حين رأى شنف قريش وتغضبها وما تصنع بأبنائهم وإخوتهم الذين أسلموا، ليستعد -حرصًا على رسول الله ﷺ- أن تمتد إليه يد بسوء، وقرأت قريش على وجه أبي طالب عزمته التي سيلقاها بها إذا حدثتها نفسها بما زعمت من منازلته وحربه، فعدلت إلى المداهمة والاستعتاب.

ذكر ابن سعد في الطبقات عن شيخه الواقدي بأسانيد متعددة أن قريشًا قالت لأبي طالب بعد أن أعلن لها عزمته الصارمة في رده على بلاهتها بعرضها أقصوصة فتاها عمارة بن الوليد التي باءت بالخيبة والخسران: فأرسِلْ إلى ابن أخيك

فلنعطه النَّصَفَ، فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ فجاء رسول الله ﷺ، فقال له عمه -على سمع رهط قريش- : هؤلاء عمومتك، وأشراف قومك، وقد أرادوا ينصفونك، فقال رسول الله ﷺ : «قولوا أسمعْ» قالوا: تدعنا وآلهتنا، وندعك وإلهك. وقال أبو طالب -وكان هذا منتهى علمه برسالات الله- : قد أنصفك القوم فاقبل منهم. فقال رسول الله ﷺ : «أرأيتم إن أعطيتكم هذه، هل أنتم معطيَّ كلمةً إن أنتم تكلمتم بها ملكتهم بها العرب، ودانت لكم بها العجم؟».

فقال أبو جهل -وكان سفيه القوم ومتكلمهم- : إن هذه الكلمة مربحة نعم وأبيك، لنقولنها وعشرًا أمثالها، فقال لهم رسول الله ﷺ : «قولوا: لا إله إلا الله». فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون: اصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد، ثم قال بعضهم لبعض: لا نعود إليه أبدًا، وما خيرٌ من أن يُغتال محمد، فلما كان مساء تلك الليلة فُقِد رسول الله ﷺ وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه، فجمع أبو طالب فتيانًا من بني هاشم وبني المطلب، ثم قال لهم: ليأخذْ كلٌّ منكم حديدة صارمة، ثم ليتبعني إذا دخلتُ المسجد، فلينظر كل فتًى منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم، فيهم ابن الحنظلية -يعني أبا جهل- فإنه لم

يغـب عن شـر إن كان محمد قد قتـل ، فقال الفتيـان : نفعل ، فجـاء زيد بـن حارثة فوجد أبا طالب على تلـك الحال ، فقال : يا زيد : أحسسـت ابن أخي ؟ قال : نعـم ، كنتُ معه آنفًا ، فقال أبو طالب : لا أدخل بيتي أبدًا حتى أراه ، فخرج زيد سريعًا حتى أتـى رسـول الله ﷺ وهو في بيـتٍ عند الصفـا ، ومعه أصحابه يتحدثون ، فأخبره الخبر ، فجاء رسول الله ﷺ إلى أبي طالب ، فقـال يا ابن أخي : أيـن كنت ؟ أكنت في خيـر ؟ قال : «نعم» . قال أبو طالب : ادخل بيتك ، فدخل رسـول الله ﷺ بيته ، فلما أصبح أبو طالب غدا على النبي ﷺ فأخذ بيده ، فوقف به على أنديـة قريش ومعه الفتيان الهاشـميون والمطلبيون ، فقال : يا معشـر قريش ، هل تدرون ما هممتُ بـه ؟ قالوا : لا ، فأخبرهم الخبر ، وقال للفتيان : اكشـفوا عما في أيديكم ، فكشفوا فإذا كل رجـل منهم معه حديـدة صارمة فقال : والله لـو قتلتموه ما بقَّيـتُ منكم أحدًا حتـى نتفانى نحن وأنتم ، فانكسـر القوم ، وكان أشدهم انكسارًا أبو جهل لعنة الله عليه ما طلعت شمس وغربت .

عبر لمن يفقه ويعقل:

فـي هذه القصة ـ وهي تفصيـل في بعض جوانبها لما أجمل فـي غيرها من قصص الأحداث وإجمـال لما فصل في غيرها ـ

مجـالات للعبرة تسـتأهل الوقـوف معها لبيان أوجـه الاعتبار فيها :

أولاً : أنها تصور ما أصاب قريشـا مـن هلع وتخاذل بعد أن تيقنـت أن محمـداً ﷺ لم يبـال بغضبها ، وبعـد أن تجلى لها موقف أبـي طالب في عزمته القوية المجددة : اشـتداد حميته في مناصرة ابن أخيه ، والتفاف بني هاشم وبني المطلب حوله فـي حميته ومناصرته ، وأنـه لم يقم وزنـا لوعيدها وتهديدها فراحـت تسـتعطف أبـا طالب بعـد ذلـك التهديـد المرعد ، والوعيـد المرعـب ، وتطلـب إليـه أن يصلح بينهـا وبين ابن اخيه ، حتى تخرج من محنتها معه .

وقالـوا لأبي طالب : أرسـل إلـى ابن أخيك لنعطـه النَّصَف فأرسـل أبو طالب فجاء رسـول الله ﷺ يحمل فـي قلبه إيمانا برسـالة نفسه لو وزن بجبال الأرض لوزنها ، وكان هذا الإيمان هـو عدته في جميع المواقف والأزمات ، وعرض عليه عمه في أسـلوب اسـتعطافي قائلا : إن أشـراف قومـه وعمومته أرادوا السواء معه والعدل بينه وبينهم .

فأجاب رسـول الله ﷺ وهو الذي لا يسـتهدف من رسـالته ودعوتـه إلا أن يهدي الله به أول من يهدي من عباده ، قومَه إلى النـور الذي جاء به لهداية الإنسـانية على أيديهم وراثة منه في

تبليغ الرسالة والدعوة إليها ـ جوابَ الرسول الذي آمن برسالة نفسه إيمانا ليس وراءه متنفس لغيره.

فقال للقوم في ثقة مطمئنة، وأناة هادئة: «قولوا أسمع» أي هاتوا ما عندكم مما زعمتموه سواء وعدلا بيني وبينكم، وأنا أسمع سماع تقدير لما تقولون.

فقالوا في بلادة جاهلة، وجهالة بليدة، وذلة مستخذية: تدعنا وآلهتنا، وندعك وإلهك، وهذه قولة كافرة جاحدة، تحمل إلى جحودها ذلة الرجوع عن العناد في مقاومة الدعوة إلى الله والتربص برسول الله ﷺ وأصحابه، وتحمل في أسلوبها لونا من خزي التخاذل ألبسوه ثوبا من المهادنة المداهِنة.

وبدر عمه أبو طالب لأول سماعه كلام قومه: فقال معبرا بتفكير وثنيته عن تهافته للخروج من مأزق مغاضبة قومه، أو التخلي عن نصرة ابن أخيه والقيام معه: قد أنصفك القوم فاقبل منهم.

هذا الحكم من أبي طالب تحكمه العجلة المتلهفة على وقف الأزمة بين محمد رسول الله ﷺ الذي وقف إلى جانبه يحميه ويدافع عنه حمية له وعصبية لها ـ وبين الملأ من زعماء قريش، تلك الأزمة التي استخزى لها في بعض مواقفه لولا عزيمة محمد ﷺ التي تجلت في التعبير عن قوة إيمانه

برسالة نفسه إيمانا خلق في نفس أبي طالب نخوة الحمية بعد أن صوّحت نبعتها، وجدد عنده قوة العصبية بعد أن كاد يفقدها، وبدل ضعفه قوة، واستسلامه شجاعة، فعاد إلى مكانه من الحمية المناصرة لابن أخيه، ووقف لملأ قريش يكيل لهم بكيلهم، ويسد عليهم منافذ النيل من محمد ﷺ وهو يمضي في نشر دعوته وتبليغ رسالته.

وأنّى لأبي طالب وهو على ملة الأشياخ من قومه، يشاركهم وثنيتهم أن يدرك النّصَف بين قوم جعلوا عنوان نصَفهم وعدلهم الاستمساك بوثنيتهم وشركهم في بلادة عقلية بلهاء.. وبين رسالة إلهية أساسها هدم هذه الوثنية البليدة، وتحرير العقول من أغلالها، وتطهير القلوب من أوضارها، وإقامة صرح توحيد الله، وإقراره بإخلاص في التعبد له وحده.

ولكن ملأ قريش هشوا لقول أبي طالب، وتوهموا أن الأمر قد تقارب، وأنهم خارجون من محنتهم، وأن أبا طالب ـ وهو السند لابن أخيه في نظرهم ـ قد أذعن لبعض أمرهم وأن محمدا ﷺ لا يخالف عن أمر عمه.

بيد أنهم جهلوا شأن محمد ﷺ في إيمانه برسالة نفسه، وجهلوا شأن رسالات الله وعزائم حاملي ألويتها، وأسرع

محمد رسول الله ﷺ إلى كتاب رسالته يوجزه كله في كلمة واحدة، لا يريد من الدنيا ومن فيها غيرها.

هذه الكلمة هي خلاصة رسالات الله لجميع أنبيائه ورسله، وجميع ما وراء هذه الكلمة من شرائع وأحكام ونظم أمر متروك للأحداث تفصله، وهي تجري في واقع الحياة وتستجيب له العقول السليمة والفطر النيرة بعد استقرار خلاصة الرسالة وهدفها الاعظم في حنايا القلوب ومدارك العقول.

وجاء رده ﷺ على كلمة عمه وهشاشة القوم لها كاشفا الغطاء عن خداع القوم وأنهم لا يريدون نَصَفا ولا عدلا، وإنما يريدون التحايل لوقف سير الرسالة وتعويق الدعوة عن مسيرتها التي أقلقت قريشا سرعتها وانتشارها.

وأراد رسول الله ﷺ أن يبين لهم أنهم إن كانوا جادين في زعمهم السواءَ والعدل، فليستجيبوا إلى كلمة واحدة إن تكلموا بها ملكوا بزمامها الدنيا شرقا وغربا، عجما وعربا، وهذه الكلمة الواحدة هي رسالة محمد ﷺ ولا رسالة له غيرها، وهي دعوته، لا يدعو أحدا قط إلى أمر سواها، وهي هي رسالة جميع الأنبياء والمرسلين، فإن ارتبتم

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

(النحل: ٤٣)

واســتخف الطيش والغرور أشــقى القوم وأخبثهم أبا جهل سفيه القوم ومتكلمهم فقال في رعونة البطر، وفجور الغرور: نعم، وأبيك، لنقولنها وعَشْرَ أمثالها.

فقــال لهــم رســول الله ﷺ: «قولــوا لا إله إلا الله» فاشــمأز القوم، وقاموا شُرَّدا

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾

(المدثر: ٥٠، ٥١)

وهم ينفضون رءوســهم جهالــة وتعجبًا، وينفضون ثيابهم بأوا واســتكبارًا، فكانوا كمــا صورهم القــرآن الكريم حاكيا قولهم:

﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾

(ص: ٥-٧)

وفي الآيــات المجيدة من مطلع ســورة (ص) بيان لمنتهى جهــالات أحلاس الوثينة وعبيد المــال، وأنهم بلغوا من بلادة العقــل أنهم يقلــدون الملــل المنحرفة عن الحــق، يتخذونها إماما في عقيدتهم الإلحادية المشركة ممن حرفوا كلام الله عن مواضعه، وجعلوا للكون آلهة، فلما قيل لهؤلاء الذين يعيشون

بعقلية مستعارة لا يملكون منها سوى ترداد ما سمعوا بغير تعقل ـ قولوا «لا إله إلا الله» لم تتسع بلادة عقولهم التقليدية المستعارة أن يكون إله الخلق إلها واحدا، وعجبوا مما قيل لهم تقريرا لوحدانيته وتفرده بالإخلاص في التعبد له، ولهذا قالوا في تعجبهم من توحيد إله الكون: فكيف يسع الخلق كلهم إله واحد، وهم أمم وشعوب، وقبائل وبطون؟! فأنزل الله تعالى في تسفيه أحلامهم وبيان بلاده عقولهم هذه الآيات من سورة (ص) تنعي عليهم ما أهدروه من معالم إنسانيتهم وما فضَّلهم الله به عن البهائم من نعمة العقل.

ثانيا: أن النبي ﷺ لما سمع مقالتهم، وأدرك مخادعتهم وأنهم لا يريدون بما طلبوه سواء ولا نَصَفة، وإنما يريدون تعويق الدعوة عن سيرها، أراد أن يضع أمام عقولهم صورة واضحة لحقيقة رسالته في أسلوب بيِّن موجز أشد ما يكون إيجاز الإعجاز، لأن هذا هو واقع رسالة محمد رسول الله ﷺ لعل هذا الأسلوب الموجز البين يقتلع من قلوبهم سدود الجهالة البليدة المقلدة التي تعيش عالة على عقليات منحرفة ضالة، وتنزع من عقولهم حواجز البلادة التي تحجب عنهم ضياء الحق، فقال لعمه ـ في رواية ـ ردا على ما يطلبه ملأ قريش: «يا عم: أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟» فقال له عمه: وإلام

تدعوهــم؟ فقال ﷺ: «أدعوهــم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بهــا العــرب، ويملكون بها العجــم» فعجل خبيــث القوم أبو جهــل من بين القوم وســأل عن هذه الكلمة التي ســتجعل من قريش في ظل الإيمان برسالة محمد ﷺ ملوك الأرض، وسادة الدنيا؟ فلما دلَّهم رسول الله ﷺ على هذه الكلمة التى هي في حقيقتها روح رســالة محمد ﷺ وحقيقتهــا الأصلية الكاملة ـ اســتغضبوا ونفروا، وقاموا ينفضون ثيابهم تبرؤا أن يكون قد علق بها شــيء من نور التوحيد الذي يغشى أبصارهم ويزيدهم رجسًــا على رجســهم، وقالوا: ســلنا غيرها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «لــو جئتمونــي بالشــمس حتى تضعوها فــي يدي ما سألتكم غيرها».

مظهر من قوة إيمان النبي ﷺ برسالة ربه:

فالنبــي ﷺ في هذا الموقف لم يطلب منهم شــيئا أكثر من أن يخرجهــم مــن ظلمات الجهالــة العقلية وضــلالات الوثنية إلــى بؤرة الضياء الفكري والإشــراق الروحي، ومنبع الهداية، فهــو ﷺ لــم يَدْعُهم إلا إلــى كلمة واحدة هــي رأس الأمر كله فــي رســالته التي يدعو إليهــا، لأنه ﷺ لم يتعــرض في موقفه هــذا إلى مآثمهم الخلقية، ولا إلى مفاســدهم الاجتماعية، ولا إلى مظاهر الطغيان وعتو الاســتبداد التى يعيشــون في ظلها،

ولم يسألهم مالهم وثرواتهم، ولا سألهم شرفا فيهم، فهم أعلم الناس برفعة شرفه وسمو حسبه، ولا سألهم أن يملِّكوه عليهم، وإنما عرض عليهم الدعامة العظمى التى تنبثق منها جميع فضائل رسالته سلبا وإيجابا، لتيسير تقبلها والإيمان بها، ولكن الهدى هدى الله، فلم يقبلوا ما عرضه عليهم وانصرفوا وهم أشد عداوة له ولددا بخصومته، وأضرى سفاهة، وأشرس أذى، وأخبث طوية.

عزيمة محمد ﷺ في تبليغ الرسالة لم تعرف المهادنة ولا المداهنة:

ثالثا: أن هذه القصة ومثيلاتها تبين أن هذه المرحلة من الدعوة كانت مرحلة العزيمة الماضية القوية التى لا تتزحزح، والصبر الذي لا ينفد، والكفاح الذي لا يتردد، لأنها مرحلة التأسيس للعقيدة وبناء صرح الرسالة وإقامة دعائم الدعوة إلى الهدى والحق، فلو وهنت عزيمة المُبلِّغ شيئا من الوهن، فمالت إلى المهادنة، وتخلى الصبرُ المكافح لحظة عنها، وتخففت من النضال نَفَسا واحدا، لوجد خصومها مداخل إلى تعويقها عن سيرها وعرقلة مسيرتها.

وقد كان النبي ﷺ على أتم العلم بهذا كله، وقد أعد نفسه له ولأكثر منه ومن وراء هذا العلم علمه ﷺ بما

يملأ قلوب زعماء الوثنية من شرور ومفاسد، وبما تنطوي عليه جوانحهم من الحقد الأسود والشنآن الكظيم، فزاده ذلك صمودا في قوة إيمانه برسالته إيمانا تمثل إعجازهُ ومتانةُ نسجِه وقهر عزته، في كلمته المعجزة في إيجاز معبر عن قوة هذا الإيمان بصورها المختلفة التي أخرجتها في إطارها الروايات الصحيحة في مناسباتها المتعددة، وكلها تنتهي إلى التعبير عن قوة إيمان محمد ﷺ برسالة نفسه قوة لو تجمعت عليها قوى الأرض على أن تثنيه عن وجهه في تسيير دعوته وتبليغ رسالته ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

ذلك قوله ﷺ: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها» ولكن زعماد الوثنية المادية يعيشون ببطونهم لبطونهم وبشهواتهم لشهواتهم، فلا عقول تفكر، ولا قلوب لهم تفقه، فهم في حياتهم المادية المتحجرة لا يعرفون من وجوه الحياة وجوانبها إلا المال وجمعه، والاستكثار منه، ولا يعرفون منها إلا شهوات البهائم والاستغراق فيها، أقصى أمل أحدهم أن يأكل فلا يشبع، لا شرف لهم في تفكير، أشرف الشرف عندهم سيادة قبيلة، أو زعامة قرية، ومن ثم توهموا: أن محمداً ﷺ ممن تغريه هذه الماديات الحقيرة مهما عظم

حجمها واعرضّت صورها، فعدلوا عن العناد الأجوف واللدد الخادع إلى الملاينة المستضعفة والمداهنة الفاجرة.

سفارة عتبة بن ربيعة لمفاوضة محمد ﷺ ليترك دعوته ورسالته:

روى ابن إسحاق في سيرته عن محمد بن كعب القرظي قال: حُدثت أن عتبة بن ربيعة قال يوما وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله عليه السلام جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ قالوا :بلى، يا أبا الوليد قم إليه فكلمه، وفي رواية ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمر، ورواية أبي يعلي الموصلي عن جابر بن عبد الله بسند جيد أن نفرا من ملأ قريش اجتمعوا، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه. قالوا: لا نعلم أحدا غير عتبة ابن ربيعة.

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة في العشيرة[١٦]، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به

(١٦) السِّطة في العشيرة: أي التمكن والتوسط فيهم. (المجلة).

جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع حتى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها، فقال رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الويد أسمع»، قال عتبة: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفًا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به مُلكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوَى منه.

رد النبي ﷺ على تفاهات سفير ملأ قريش عتبة بن ربيعة:

فلما فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يسمع منه قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاسمع مني» قال عتبة: أفعل. قال رسول الله ﷺ:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا

عَـٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ
وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

(فصلت: ١ - ٨)

ومضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال له رسول الله ﷺ: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك».

ما قاله عتبة لقومه فيما سمعه من النبي ﷺ:

ثم رجع عتبة إلى أصحابه من ملأ الوثنية والشرك، فلما رأوه قال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني، واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على

العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه: قال عتبة: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

رواية أخرى في القصة ذكرها ابن كثير وعقب عليها مرجحا رواية ابن إسحاق:

وقد ذكر ابن كثير في تفسيره هذا الحديث منسوبًا إلى مسند عبد بن حميد من طريق الزيال بن حرملة الأسدي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وعقب عليه ابن كثير بقوله: وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده عن الزيال بن حرملة الأسدي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فذكر الحديث إلى قوله:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت: ١٣)

فأمسك عتبة على فيه، وناشده الرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، واحتبس عنهم، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صبا إلى محمد، وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، فانطلقوا بنا إليه، فانطلقوا إليه، فقال أبو جهل: يا عتبة، ما حبسك عنا إلا أنك صبأت إلى محمد، وأعجبك طعامه، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من

أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد ، فغضب عتبة ، وأقسم ألا يكلم محمدا أبدًا ، وقال : والله لقد علمتم أنني من أكثر قريش مالاً ، ولكني أتيته وقصصت عليه القصة ، فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، وقرأ السورة إلى قوله :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾

(فصلت :١٣)

فأمسكت بفيه ، وناشدته الرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب ، فخشيت أن ينزل بكم العذاب .

قال ابن كثير : وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبي يعلى . وابن كثير يقصد بهذا التعقيب ما ساقه من طريق عبد بن حميد في مسنده بالسند الذي ساقه به البغوي مع بعض الاختلاف ، في الأسلوب والألفاظ ففي عبارات رواية عبد بن حميد ألفاظ غريبة منكرة .

ثم قال ابن كثير : وقد أورد الإمام محمد بن إسحاق بن يسار هذه القصة على خلاف هذا النمط ، ثم ذكر رواية ابن إسحاق كما ذكرناها ، وقال معقبًا : وهذا السياق أشبه من الذي قبله .

رواية ثالثة تذكر أسماء الملأ الذين أشاروا بالمفاوضة:

وقد أخرج هذه القصة العلامة مغلطاي في سيرته منسوبة إلى ملأ قريش مجتمعين وفيهم عتبة، كما أخرجها ابن إسحاق بعد روايته قصة عتبة منفردًا عن الملأ، فقال: عن سعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اجتمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث بن كلدة، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأمية بن خلف عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تُعْذَروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء، وكان حريصًا عليهم، يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم فقالوا له: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة،

فـإن كنت إنما جئت بهـذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشـرف فينا فنحن نسوِّدك علينا، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هـذا الذي يأتيـك رئيًا تراه، قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

فقـال لهم رسـول الله ﷺ: «ما بي ما تقولـون ما جئت بما جئتكـم به أطلـب أموالكم، ولا الشـرف فيكـم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني رسولاً، وأنزل عليّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشـيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فـإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهـو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم».

واختلاف الروايتين في سياق القصة سندًا و حالاً وأسلوبًا وإجابـة يفيد تكرار القصة وأنهـا وقعت مرتين أو أكثر، مرة فـي لقاء زعماء قريش مجتمعيـن وفيهم عتبة، ومرة في لقاء عتبـة منفـردًا عن الملأ، سـواء كان هـذا اللقـاء الانفرادي باقتـراح عتبة أو كان باقتـراح الملأ، وفي كل مـن اللقاءين حكمـة تتجلـى في سياسـة توجيـه النبي ﷺ لسـير دعوته وتبليغ رسالته، ولا مانع من وقوع اجتماع آخر بين رسول الله ﷺ وملأ طغاة قريش.

القصة تصور أعمق منازل إيمان النبي ﷺ:

لا يـزال في هـذا الموقف الذي طلبت فيـه قريش مصالحة النبـي ﷺ وإعطـاءه النَّصَـف والمعدلـة -كما زعمـوا- عبر تنطـق بقوة إيمان محمد ﷺ برسـالة نفسـه قـوة لا توزن بها قـوة في الأرض، ولا يزحزحها عن هدفها ترغيب ولا ترهيب، ولا يقـف أمامهـا وعد ولا وعيـد، كما تنطـق بصدقه ﷺ في دعوته ورسـالته، وكما تنطق بصرامـة عزيمته في هدوء الثقة ويقيـن الإِيمان لتبليغ أمـر ربه، وكما تنطق بما فطره الله عليه مـن سـمو المكارم وعلـو الخلق فـي مخاطبـة محاوريه مهما كانـت ضـراوة عداوتهم، في أنـاة من التفكير وسـداد الرأي والصبـر الحليم والحلم الصبور، وكما تشـهد بما آتاه الله من علم ومعرفة بدخائـل النفوس وطبائعها والطب لأمراضها مما كان أساسًـا لدعائم نجاح سياسـته في القيام بموجبات تبليغ رسالته، ونشر دعوته في هذه المرحلة التي كانت أشق مراحل الدعوة وتبليغ الرسـالة، لأنها مرحلة الكفاح المرير والنضال الشـديد، والأزمات الفادحة المتوالية بالأحداث المسـتعصية المستصعبة.

أحداث اللقاءات.. دروس تربوية:

إن أحداث لقاءات زعماء قريش مع رسول الله ﷺ تارة ومع عمه أبي طالب تارات أخرى، ليوقفوا تيار الإِيمان بالدعوة إلى

الله تعالى وتوحيده، ويعوقوا سير الرسالة إلى أودية الحياة وساحات القلوب والعقول كانت دروسًا تربوية، تلقاها رسول الله ﷺ فيما تلقى من تربية ربانية وتعليم إلهي، ليعده لتحمل أثقال القيام بواجبات تبليغ رسالته، ويعده إعدادًا كاملاً، يستجمع به شجاعة الإيمان، وقوة الصبر، وبراعة العرض، وسداد الرأي، وجودة التفكير، وروعة البيان، دون أن تقوده إلى النجاح في القيام بموجبات رسالته معجزاتٌ مادية قاهرة، لا يملك معها العقل إلا الخضوع والاستسلام دون فهم ونظر.

رسالة محمد ﷺ رسالة عقل وتفكير وشعور وعدالة:

ذلك لأن رسالة محمد ﷺ رسالة عقل وتفكير، وشعور وإحساس يوقظ الوجدان، ويحرك العواطف الإنسانية، حركة تقوم على الاقتناع والاطمئنان، رسالة لا تعرف إكراه العقل على أن يؤمن بما لا يقتنع به، ولا تعرف قسر الفكر على أن يدرك أو يتقبل ما لم يفهم، ولا تعرف خداع الشعور ليؤمن بما لم يمس جوانب الرضا من العقل والقلب والروح ويستقر في شغافها.

رسالة لا تدخل في قلب المؤمن بها إلا ما يثلج فؤاده، ويرضي ضميره، ويضيء جوانب روحه فيملؤها نورًا وهدى ويقينًا وحبًا.

فهـذا عتبـة بن ربيعة رأس مـن رءوس عباهلة قريش وسـيد من سـادتها في مكانه منهم رجلاً وعقـلاً وتفكيرًا وثراء وبيتًا وعشـيرة، يرى مـا تورط فيه قومـه من أزمات سـاحقة ماحقة تـكاد تأتي علـى كل ما لقريش من مقومات فـي مكانتها عند العرب؛ لأن رجلاً منهم خيرهم نسـبًا وحسـبا ورجولية وخلقًا وفضـلاً وأمانة وصدقًا جاءهم بالهدى مـن عند الله بعد أن بلغ فيهم سـن الكمال البشـري الذي لا يرتد فيه الرجل عن سواء فطرته التي نهد عليها.

هذا الهدى الذي جاء به رسول الله ﷺ لا تعرفه وثنيات قريش وديانات العرب قاطبة، ومن ورائهم أمم الأرض وشـعوبها التي تدين بألوان من الوثنية المغلفة وضروب من الشـرك الملحد، تقوم كلها على الظلم والاستبداد والبغي والطغيان الكفور.

فجاءهـم محمد ﷺ - وقومه أعـرف الناس به صدقًا وأمانة ومكارم أخلاق - برسالةٍ جِماعُها كلمة واحدة (لا إله إلا الله)، وطلب من الإنسـانية كلهـا أن تتوحد في عقيدتها وسـلوكها على أساسـها، فـإذا قالها الناس واعتقـدوا وعلموا حقيقتها، وعلمـوا بمضمونهـا، واسـتهدفوا غايتها كانـوا كما خلقهم الله إخوة متسـاوين في الحقـوق والواجبـات، لا يظلم قويهم ضعيفهم، ولا يستبد قادرهم بعاجزهم، ولا يطغى غنيهم على

فقيرهم، ولا يستأثر أحد منهم بفضل في عيش كريم وحياة حرة عزيزة.

ولكن قريشًا ومن ورائهم جميع الماديين الملحدين في دين الله، الذين تعبدوا أنفسهم للدنيا وماديا‌تها، واستغرقوا تفكيرهم في التفنن في طرائق حيازة حطام الدنيا والاستئثار به على الآخرين علوًا واستكبارًا في الأرض، كانوا يعيشون على نظم ابتدعوها بغيًا وعدوًا تجعل من جمهرة المجتمع الإنساني وكثرته الغامرة، وهم يموجون في بحرهم البشري الزاخر عبيدًا لا يملكون من شأن الحياة شيئًا، ولا يملكون من أمر أنفسهم شيئًا، ويملكهم كل شيء.

وتجعل من قلة ضئيلة، وحفنة بشرية قليلة في عداد البشرية سادة يملكون في الحياة كل شيء، يملكون القوت ومصادره، ويملكون الماء وموارده، ويملكون الأرض وأرجاءها، ويملكون الهواء وأجواءه، ويملكون الفكر وخلجاته، ويملكون الحكم وسلطانه، ويملكون المال والثراء يملئون بطونهم من دماء البشرية المصنوعة خبزًا ولحمًا وفاكهة أو خمرًا، ينامون على تجشؤ الأكراش الكظيظة، ويستيقظون على أنّات المحرومين، وهي تلعنهم وتستنزل مقت الله وغضبه عليهم.

فكيـف يريـد هذا الرجـل - محمـد ﷺ - وحـده منفردًا عـن الدنيـا بما فيها وما فيهـا أن يحول وجه الحيـاة إلى وجه جديـد لا تعرفه حيـاة أولئك الطغاة فـي الأرض؟ وكيف يريد هـذا الرجل وحده أن يغير وجه الحياة إلى وجه جديد لا تعرفه حيـاة أولئك الطغاة في الأرض؟ وكيف يريد هذا الرجل وحده أن يغيـر وجـه التاريخ إلى وجهة لا تعرفهـا الوثنية المادية في عنجهيتهـا الجاهلية وإلحادها الوثنـي الأبله؟ ولا تعرفه معها شـعوب الأرض وأممها المرتطمة في أوحال الشـرك والوثنية المتعالمة.

صورة الحياة في نظر الوثنية المادية:

محمد - ﷺ - هذا الذي ولد يتيمًا، وشـب مقلاً في حطام الدنيـا، كادحًـا يعمـل ويكسـب قوته مـن كد يديـه، وعرق جبينه، فليس عنده من المال والثراء، وكنوز الدنيا وتجاراتها ومضارباتهـا ومرابحاتها شـيء من الذي نملكه ونسـتعبد به النـاس، ونسـوقهم إلـى طاعتنا بسـياط الحاجة إليـه وهو في أيدينا.

محمـد هـذا يريد أن يسـلبنا ملكنـا وحياتنـا الفارغة من المتاعب، ويسلبنا ما نحن فيه من شرف مترهل بطين، ويريد

أن يبط كروشنا بحد دعوته إلى الإخاء والمساواة؟[١٧] وأي إخاء هذا الذي يدعو إليه محمد وجاءت به رسالته، الإخاء الذي يجعل من عبيدنا وخدمنا أخوة لنا، يتساوون معنا في الحقوق والواجبات، يكون لهم بهذا الإخاء حقوق في أعناقنا، ويتكون لهم علينا واجبات اجتماعية إنسانية، يجب أن نؤديها إليهم؟.

وأية مساواة تلك التي تنهض بهؤلاء المدقعين الفقراء المتهالكين جوعًا وعريًا إلى آفاق حياتنا شبعًا كظيظًا وسيادة متغطرسة متعالية، تشير ولا تتكلف الكلام فتستجيب الحياة لإشارتها؟.

حقد حانق ومادية بلهاء وتفكير كفور:

تجمَّع أحلاس الشرك وغثاء الوثنيات من غطاريف قريش ونظروا في أمر محمد ﷺ وائتمروا بينهم ودبروا واستكبروا، وشنعوا به وشمروا لمقاومة دعوته بعد أن جهر بها، ودخل أصحابه المسجد، وصلوا عند الكعبة، وتحلقوا حولها، وقد كانوا يستخفون بإسلامهم، لا يستطيعون المعالنة بدعوتهم، وبعد أن كان محمد ﷺ لا يتعرض لآلهتهم يعيبها، ولا لأحلامهم يسفهها، ولا لآبائهم يضللهم، وإذا هو اليوم يعيب

(١٧) بطَّ الشيءَ: شقَّه. (المجلة).

آلهتهم، ويسفه أحلامهم، ويضلل آباءهم، فلا صبر لهم على ذلك، وكيف يصبرون على أمر فيه فناؤهم والقضاء عليهم؟.

واتفقوا على أن يبعث ملؤهم إلى محمد ﷺ يستعتبونه لعله يعتبهم، ويترك معالنتهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم وعيب آلهتهم، ولكن محمدًا ﷺ لم يبالهم، ولم يُقِم لعتبهم وزنًا ولا جعل له شيئًا من تقدير.

عزيمة محمد ﷺ تقلب الموقف على ملأ قريش:

ومشوا إلى عمه أبي طالب، وهم يرون حدبه عليه ومنْعَهُ أن يضام، وقيامه معه ونصره له، يتوهمون أن أمر ابن أخيه بيده، يملك أن يصده عن معالنة قومه بما هم عليه من سفه وبلادة في عقائدهم وأسواء مجتمعهم، فاستعتبوه ملاينة ثم مزجوا بالعتب التهديد والوعيد، فخضع أبو طالب لبعض أمرهم ولم تطب نفسه بفراقهم.

ووقف محمد ﷺ أمام ملأ قريش بعزيمة لا تفل وإيمان لا يوزن به إيمان أحد قط في السماء ولا في الأرض في ثباته ورسوخه وقوته، وقال لعمه - الذي كان يجتر ضعفه أمام عرض القوم ما زعموه نصفة وعدلاً وهو ﷺ يستعبر باكيًا رحمة لقطيع الإنسانية المعذبة في الأرض - كلمته التي تصنت لها فلك الكون وهو يجري، تلك الكلمة التى خلقت

من عمه قوة بعد ضعفه أمام طغيان ملأ الوثنية المادية، حتى رد على وعيدهم بوثبة أعدها وأعد لها في شباب بني هاشم وبني المطلب، وثبة من حمية كاد يفتك بهم فيها فلا يبقي على أحد منهم أو يهلك هو وشباب بيته وأسرته.

وعرفت الوثنية المادية جد العزيمة في تدبير أبي طالب فنكصت على أعقابها، وتراجعت عن غرورها وتهديدها وراحت إلى أبي طالب تلاينه وتحاسنه، وتطلب منه أن يهادن بينها وبين ابن أخيه ويعطونه النصف والعدل، وأرسل أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فجاءه وعرضت قريش على لسان ملئها نصفها الكفور، وعدلها الظلوم، ولم يترك رسول الله ﷺ هذه السانحة تمر دون أن يضع قريشًا وجهًا لوجه أمام خلاصة من رسالته وجماع دعوته في كلمة واحدة إذا قالوها مسلمين إليها وجوههم خالصة لحقيتها اعتقادًا وعملاً دانت لهم بها الدنيا، فلما أظهرها لهم - بعد أن هشوا لسماعها واستجمعوا مشاعرهم وإحساساتهم، لتعيها - نفروا واشمأزوا وقاموا منكسرين مدحورين، وراحوا يدبرون أمرًا غير ما كانوا دبروا ومكروا

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾

(فاطر:٤٣)

أول سفارة بين محمد ﷺ وقريش:

وجلسـوا في ناديهـم وتآمرا فيما بينهم، وكان رسـول الله ﷺ جالسًـا وحده في المسـجد مجانبًا لهم، وانتهض عاقلهم عتبة وعـرض عليهم خطة أدارها في رأسـه ينهـي بها أزماتهم مع محمد ﷺ التي شغلتهم عن تجارتهم ومضارباتهم، وردوا على عتبة في لهفة المتورط يستنشـق نسيم النجدة من سمائم الجحيم أو الغريق الذي يغشـاه الموت من كل مكان فيتشبث بقشة يتوهمها متشبثًا ينجيه، فقالوا في صوت واحد: افعل أبا الوليد ما بدا لك وما رسـمت في رأسـك من خطة فيها إنقاذنا من هاويتنا التي ارتطمنا فيها.

وقام عتبة يمشـي فـي تيه البـأو الكذوب حتـى جلس إلى رسـول الله ﷺ، فحدثـه - صادقًـا - عن نبعة محمـد بن عبد الله في الحسـب والنسـب، والبر والخير، ثم راح عتبة يكذب ويكـذب - جاهـلاً عنيـداً - ويزعـم علـى دعـوة محمد ﷺ ورسـالته ما خيل له شـيطان شـركه ووثنيته المادية البليدة، وطلـب إلى رسـول الله ﷺ أن يصغـي إليه يعرض عليـه أمورًا لعلـه يقبل بعضها، فتحل أزمة قريش، ويبوء عتبة عاقل قريش ببطولته الوثنية والإلحادية الكنود، فقال له رسول الله ﷺ في أنـاة وريث وهـدوء والثقة المطمئنة بالإيمـان الذي لا يداخله أدنى ريب: «قل يا أبا الوليد أسمع».

وتكلم عتبة يعرض أموره التي رسم خطتها في رأسه، وقام من نادي قومه إلى مجلس رسول الله ﷺ ليعرضها عليه. لعله يقبل بعضها فتنفذه له قريش وينتهي ما بينها وبينه من أزمات وشدائد.

عقلية أرضية بليدة:

عرض عتبة على رسول الله ﷺ أربعة أمور أيها شاء أُعطيه في سبيل أن يكف عنهم، ويتوقف عن عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم.

أولها: إن كان محمد ﷺ يريد بما جاء به من دعوته إلى توحيد الله وخلع الأنداد، وترك عبادة الأصنام، مالاً جمعوا له من المال حتى يكون أكثر قريش مالاً وثراء.

ثانيها: إن كان محمد ﷺ يريد بما جاء به من رسالته شرفًا ولوه عليهم وبايعوه سيدًا لهم، فلا يقطعون أمرًا من أمورهم دون أن يكون محمد ﷺ شاهده وصاحب الكلمة العليا فيه.

ثالثها: إن كان محمد ﷺ يريد بما جاء به ملكًا ملكوه عليهم،وجعلوا على مفرقه تاج الملك وبايعوه ملكًا على سائر قريش ومن ورائها جميع العرب الذين يدينون بتعظيم قريش التي جعلوا إلى بيتها بيت أبويها إبراهيم وإسماعيل حجهم وأكبر مواسمهم.

رابعهـا : وإن كان هـذا الـذي يأتـي محمدًا رئيًـا وتابعًا من الجن ، تسـلط على مشاعره فلا يسـتطيع رده عنه وغلب عليه فلا يسـتطيع مقاومته والانفـكاك عنه بذلوا في طلب الطب له من أموالهم حتى يبرؤه منه .

أفٍ لهـذه الأدمغـة التـي نخرهـا سـوس الوثنيـة البليـدة المتهافتة ، فأفسدها حسًا ومعنى ، فلم يبق في تلافيف خلاياها ذرة من تعقل وتفكير مستقيم .

يا ويح قريش من عقلائها ! أهذا كل ما تمخضت عنه عقلية عتبة عاقل قريش لينهي به أزمتها مع محمد ﷺ .

ومرة أخرى أفٍ لهـذه الجماجم النخرة التي تحملها رقاب عريضـة الأقفيـة ، ما هذا يا أبا الوليـد ؟ وأنت من أقرب قريش نسبًا إلى محمد ﷺ وأعرف الناس بمدخله ومخرجه . . . .

حياة محمد ﷺ مرآة للكمال البشري والسمو الروحي:

محمد ﷺ رسـول رب العالمين إلى البشرية كلها أمره الله تعالى أن ينذر أول من ينذر عشيرته الأقربين ، فدعاهم وأبلغهم رسـالة ربه أكمل وأرفق ما يكون التبليغ ، ولم يسألهم أموالهم وما سألهم إلا المودة في القربى ، وما كان محمد قط في حاجة إلى شـرف فوق شـرفه في قومه وبيته ، وقريش كلها تعرف له هذا الفضل ، وتذعن به لبيته ونبعته .

ولم يعرف عنه قط أنه تطلع إلى ملك الدنيا، فلم يحفظوا عنه قط أنه طلب إليهم أن يُرئسوه عليهم أو يملكوه على بلدهم وبطونهم.

وما قَدْرُ المُلك عليهم وعلى قريتهم وبلدهم، وهي التي يملكون أمرها، وأي ملك هذا؟ ملك قرية متقاربة الأكناف، يقطعها الرجل مشيًا في زمن لا يستغرق ساعة من نهار، ليس فيها من مظاهر الرياسة بله الملك سوى هذه العنجهيات الجوفاء تملأ الأدمغة النخرة، فمحمد ﷺ عاش منذ مهده وشبوبيته ورجوليته على سمع قومه وبصرهم، فلم يطلب من أحد منهم شيئًا مما يتصل بالدنيا، ولما بعثه الله تعالى برسالته رحمة للعالمين، لم يعنت قومه ولم يسألهم دنياهم ولا زاحمهم عليها، وكان أبعد الناس عن زخرفها وحطامها والتكثر منها.

وإنما سألهم أن يطهروا أنفسهم وعقولهم وقلوبهم من رجس الوثنية، وَوَضْر الشرك(١٨)، سألهم أن يوحدوا الله في تعبدهم، وأن يخلعوا من أعناقهم عبادة الأحجار والأوثان، كل ذلك في كلمة واحدة إذا قالوا وعملوا بمضمونها وحقيقتها ملكوا الدنيا بها.

---

(١٨) وضرَ: الوضرُ وسَخ الدسم واللبن. (المجلة).

ما مكة والعرب والأرض بمن عليها وما عليها في وزن رسالة محمد ﷺ !

ولم يكن في دنيا مكة، ودنيا العرب، صاعدين ونازلين مُشَرِّقين ومغربين، ولا كان في دنيا سائر الناس وراء العرب شمالًا وجنوبًا رجل أصح عقلًا وأسد فكرًا، وأطهر قلبًا وأنور روحًا، وأكمل جسمًا، وأعلى في نقاء البشرية وصفائها كعبًا من محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي الذي اختاره الله تعالى في أكمل البشرية سنًا وعقلًا، وفكرًا وقلبًا وروحًا نبيًا ورسولًا إلى العالمين، يدعوهم إلى الهدى، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

ولكن ملأ المادية الوثنية من طواغيت قريش لم تقنعهم سفارة عتبة ابن ربيعة إلى محمد ﷺ بل شكوا في صباءة عتبة، إذ لم يرجع إليهم من سفارته أَمَمًا[١٩]، بل وجه إلى بيته، ولم يخرج إليهم معتزلًا مجلس ناديهم فذهبوا إليه، وسألوه عن اعتزاله عنهم، وعنتوه في موقفه منهم، حتي أكرهوه على شيء لم يكن ليختاره لو كان له خيار، أكرهوه علي أن يحلف أن لا يكلم محمدًا - ﷺ - أبدًا ! ! عجب عاجب، ومنطق منكوس.

---

(١٩) أَمَمًا: أي قصدا أو مباشرة.

أهذا منطق العقل - يا عاقل قريش، ومختارها لحل عقدة حياتها في أشد أزماتها وما شأن محمد ﷺ في موقفك مع قومك، وموقف قومك منك، ولاسيما موقف غميز الرجولية، وطريد الكرامة، ولعين المروءات صاحبك أبي جهل، إذ أحرجك وعنتك بكلماته الفاجرة حتى تخرج عن عقلك، وتقسم أن لا تكلم محمدًا ﷺ أبدًا. وهل خلت يا عاقل قريش فتخيلت أن محمدًا ﷺ في حاجة إلى مكالمة عبيد المادية الوثنية، وأنت أحد ساداتهم، إن لم يؤمنوا بالله، ويكفروا بالطاغوت ويستمسكوا بعروة دعوته الوثقى، ويحرروا عقولهم وقلوبهم من التعبد للمادية الوثنية بشتى أشكالها؟

أفما كانت العزة العربية والكرامة القرشية، والشهامة العبشمية تقتضيك بداهة أن يكون موقف المقاطعة، هذا الذي اتخذته لنفسك أو حُملت عليه حملًا، فوقفته من محمد ﷺ وهو لا دخل له في حرجك - أن يكون حريًا به منك صاحبك غميز الرجولية أبو جهل، فهو الذي عيرك بالبطنة والبؤس والحاجة إلى طعام محمد ﷺ وطعام محمد ﷺ غير مضنون به على عامة أو خاصة، وغير محجور على غني أو فقير، ولا ممنوع منه عاجز أو قدير، ولا يذاد عنه مسكين أو

طريد، وكل طعام في ميزان الجود والمروءة علالة الدنيا وسد رمقها[20]، فلا يقدره فوق ذلك إلا شح زري، وبخل شري[21]، وضن بغي.

ولكنها المادية الوثنية في كل زمان ومكان وعصر ومصر لا تؤمن إلا وهي مشركة، ولا تعقل إلا وهي آفنة، ولا تتصرف إلا وهي مأفونة مخذولة.

وأين شجاعة عاقل قريش عتبة بن ربيعة التي كانت تُحلِّيه، وفي ظلها اختارته قريش ليسفر بينها وبين محمد ﷺ ليخلصها من أزماتها؟

تلك الشجاعة التي تبددت هباء في أعاصير الجبن والهلع عندما لقيه لعين الرجولية أبو جهل وهو يجبهه ويسخر منه ويهزأ به، حتى استنزله من أفق تعقله إلى مهاوي العصبية الجهول والعناد الكفور.

لقد عبر عتبة لقومه حين سألوه عن سفارته إلى محمد ﷺ وقد سمع منه ما سمع من آيات القرآن الحكيم تعبيرًا أزكم أنوفهم حتى قال لهم صادقًا غير مصدق: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم.

---

(٢٠) عُلالة الدنيا: العُلالة: ما يُتلهَّى به. انظر: الوسيط. (المجلة).

(٢١) بخل شرِيّ: أي مستشري. انظر: تاج العروس. (المجلة).

فكرة ترابية واحدة لملأ الوثنية مجتمعين أو منفردين:

وقد صنع ملأ المادية الوثنية من طواغيت قريش ما بدا لهم، فاجتمعوا في ناديهم، ونظر بعضهم إلى بعض، وطالت نظراتهم: لم يُشْفِنا عتبة، وسحَرَهُ محمد بكلامه، ولن يقدر على أن يسحرنا جميعًا، فلنلقه مجتمعين، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ يسعى مجدًا، وهو يظن أن قد بدا لهم في أمر دعوتهم بداء من الخير والهداية، وكان ﷺ حريصًا عليهم يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم.

وكان الذي عرضوه عليه مجتمعين هو عين ما عرضه عتبة منفردًا بيد أن النبي ﷺ قد أجاب الملأ مجتمعين بغير ما أجاب عتبة منفردًا.

وهنا يقف القلم متأملًا ليستبين وجه مغايرة إجابة النبي ﷺ في الموقفين؛ لأن في ذلك حكمة تمثل سياسة سير الدعوة وتبليغ الرسالة بما يدل على سداد التفكير الذي حبي به رسول الله ﷺ، ومعرفته بما قامت عليه الطبائع البشرية من اختلاف في الإدراك في حالتي الاجتماع والانفراد.

كان القصد من الرد على عتبة منفردًا إزعاج ضميره ليستيقظ:

أولًا : كان جواب النبي ﷺ على عرض عتبة في لقائه منفرداً سفيرًا من ملأ المادية الوثنية أن قرأ عليه سورة فُصّلت، وهي من سوابق سور القرآن الكريم المكيات، وطلائع التنزيل، وهي نموذج من أرفع نماذج البيان القرآني في روعة الأسلوب وبراعة الإعجاز الشامل لإعجاز الأسلوب، وطرائق الأداء واتساق الصياغة البيانية، والشامل لإعجاز الهداية والحقائق الكونية، والمعاني الإصلاحية، والمعارف الفكرية، والعلوم العقلية، بما اشتملت عليه من عرض لآيات الكون في بعض جوانبه، وما تضمنته من رهبة الإنذار، وروعة الإرهاب للذين يلحدون في آيات الله، ويكفرون بما أنزل الله من كتاب يدعوهم إلى الرشد والخير، وبما حوته من حوار وحجاج، وقصص وأحداث، مليئة بالعبر التي توقظ الضمير، وتوجه العقل إلى النظر في آيات الله حتى يتبين للناظرين بعين الاعتبار أن الذي أنزل على محمد ﷺ هو الحق، جاءهم به من عند ربهم، مما يقتضينا أن نجمل في إيجاز معبر بيان حقائق هذه السورة الكريمة ومعانيها التي تجلت فيها حكمة اختيار رسول الله ﷺ لها جوابًا على عرض ما عرضه سفير طواغيت المادية الوثنية عتبة بن ربيعة عليه ﷺ ليقنعه باختيار ما يشاء

من لعاعات الدنيا فيعطاه[٢٢]، ويكف عن قريش ودعوتها إلى الله وتوحيده، فلا يسمعها في أنديتها قوارع رسالته، ولا يزعجها بشآبيب إنذاراته.

ومن البين الذي لا يحتاج إلى توقف متأمل، أن الأمور التي عرضها سفير قريش عتبة بن ربيعة على رسول الله ﷺ ليختار منها ما يشاء، فتعطيه إياه قريش ثمنًا لكفه عنها، وتركها غارقة في أرجاس ماديتها الوثنية وشركها الكفور - كانت أرفع مناصب الدنيا وأجل ما يطلبه الطامعون في زخارفها، الطامحون إلى مشارفها وعلوها.

فهي أمور مادية أرضية، ليس فيها رائحة من شرف العقل وكرامة الفكر، وإشراق الروح، انتزعها عباهلة المادية الوثنية من أعظم ما تسمو إليه حياتهم المادية الظالمة المظلمة.

وقد أراد رسول الله ﷺ بقراءة هذه السورة الكريمة على مسامع سفير قريش عتبة بن ربيعة، وجعلها جوابًا له عن عروضه المادية التي عرضها عليه ليختار منها ما يشاء أن يزعج ضميره ليستيقظ من غطيط نومه الوثني، ويفيق من سكرته الجاهلية، ويصحو من غفلة عنجهيته، وضلالات

---

(٢٢) لعاعات الدنيا: اللعاعة نبت ناعم في أول ما يبدو. وبسرعة تحوله شُبهت الدنيا، في قولهم (إنما الدنيا لعاعة). (المجلة).

مواريثه، عسى أن يكون في ذلك فتح مغاليق قلبه وقلوب من وراءه من غطاريف الوثنية المادية، فتؤمن قلوبهم بما يتجلى لها من الحق، وبما تعرف من حججه ودلائله، وبما تفقه من براهينه التي جاءهم بها رجل أمي من أنفسهم، وهم أعرف به من معرفتهم بأبنائهم وأنفسهم.

ولا شك أن الحديث إلى رجل -مفردًا- أدعى إلى الأناة والتفهم وتعمق الفكر وبسط الحوار وتنوعه في أودية الإقناع التثبت، ولا سيما إذا كان المتحدَّث إليه يحمل مخايل التعقل وحكمة التدبر لما يسمع، وقد كان الظن كذلك بعتبة، فقريش بعثته سفيرها إلى النبي ﷺ، لأنها رأته أعقلها وأعلمها بما هنالك من علومها ومعارفها التي تشف لها عما تريد معرفته من محمد ودعوته.

ولعل سيدنا رسول الله ﷺ رأى بحكمة تسديد الله له في سير رسالته، وتوجيهه في تبليغ دعوته أن إسماع عتبة وحده شيئًا من آيات القرآن الحكيم فرصة لا تتاح مع الجموع المختلطة التي تغلب عليها أصوات الغوغاء، فترتفع على أفكار المتعلقين، وغالبًا ما تكون الجموع الجماهيرية المختلطة جامعة إلى جانب الرجل المتفكر أعدادًا من الحمقى والسفهاء المتسرعين بالكلمة يلقونها دون مبالاة بما تنتهي

إليه والغوغاء لا يضبط لها رأي، ولا يقام لنعيقها ميزان، ولا يعرف لها تدبر في فكر أو رأي.

ومن هنا كانت الحكمة في إجابة عتبة من مسائلاته وعروضه في اختصاصه بقراءة هذه السورة الكريمة، وقد تحقق مرمى نظر رسول الله ﷺ في تحقق أثر قراءة السورة في عقل عتبة وتفكيره، فنقله إلى قومه وملئهم، وتأثُّر العقل ليس من وسائل تأثر القلب الذي يتولد منه الإِيمان وتنبع من أرومته الهداية، فلم يؤمن عتبة ولكنه صدَقهم إذ قال لهم: أنه سمع من محمد - ﷺ - كلامًا لم يسمع مثله قط.

بيان موجز في بعض معاني سورة فصلت

وسـورة فصلت هي السـورة الثانية من الحواميم السبع، وهي السـورة الحاديـة والأربعـون من سـور القرآن الكريـم في ترتيب المصحـف الإمام الذي تداولته الأمة مجمعة عليه منذ نقله عثمان بن عفان بمشـهد من أصحاب رسـول الله ﷺ من صحف الصديق أبـي بكر، التي أخذها بإجماع الصحابة رضي الله عنهم مما كتب في صحف رسول الله ﷺ بأمره تحت سمعه وبصره.

والناظـر في هذه السـورة بعين التأمل البصير يرى أنها سـورة تغلـب علـى آياتها البرهنـة الكونيـة، فهي قد بدأت بـأن القرآن تنزيل من الرحمن الرحيم، وهو الله رب العالمين الذي تولى تربية خلقه، ووصف الرحمة المسـتمد من هذين الاسـمين الكريمين فـي مفتتح السـورة اللذيـن يسـتوعبان التفضل بالإنعـام ابتداء، ودوام الإحسان من غير انتهاء، فيه إشعار يستقبل المؤمن من أول وهلـة بأن مـا جاء في هذا الكتاب المجيد عامة وفي هذه السـورة خاصـة من أمر ونهي، ووعد ووعيـد وترغيب وترهيب، وقصص وأحداث وآيـات وعجائب، وتوجيه نظر إلى دلائل القدرة الإلهية في آيات الكون الآفاقية والأنفسـية، إنمـا هو رحمة من الله تعالى بعباده يدعوهم بها لينقذهم من الظلمات إلى النور، ثم يخرجهم من ضلالات الجهالة إلى هدى العلم والمعرفة.

ثم بينت السورة أن هذا القرآن فصلت آياته بأسلوب عربي بيَّن يبشر وينذر، ثم تتحدث عن فريق من الناس صموا آذانهم عن سماع الحق، وأغلقوا دون هدايته قلوبهم عنادًا واستكبارًا في الأرض بغير الحق، وأقاموا على عنادهم، وظلوا في طغيانهم يعمهون، فلم تتألفهم البشائر ولم تردعهم النذر، ثم تذكر السورة أن محمدًا ﷺ بشر مثل سائر البشر في طبيعته البشرية، لا يمتاز عنهم بشيء سوى أنه رسول من الله يوحى إليه بتوحيد الله تعالى، فلا يطلب بما جاء به مالًا، ولا سيادة، ولا شرفًا، ولا ملكًا مما يتطلع إليه عبيد الدنيا، وإنما يطلب من عباد الله أن يستقيموا مع ربهم، فيفردوه بالعبادة ويستغفروه من الذنوب والآثام.

والسورة تخاطب هؤلاء المعاندين بأسلوب تعجبي، ينكر عليهم موقفهم المتبلد بالجمود من قوارع الآيات ليوجه عقولهم إلى النظر في الآيات الأرضية:

أولًا: لقربها إلى نظر المخاطبين ثم تنتقل السورة إلى توجيه النظر.

ثانيًا: إلى الآيات السماوية لظهور دلائلها لأبصارهم وسائر منافذ حسهم وحاجتها إلى التأمل الصادق المتعمق ببصائرهم وذلك في نحو قوله تعالى:

﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ

ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ
فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ
دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾
فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا
ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾

(فصلت: ٩-١٢)

والآيات تذكر خلق الأرض في يومين برهانًا على التوحيد وخلع الأنداد، وأن الله تعالى الذي أبدع بقدرته هذه الأرض هو رب العالمين، الذي رباهم على موائد فضله وإحسانه وأنه تعالى حفظ الأرض بما جعل فوقها من الرواسي، وأنه بارك فيها بما أمدها من رحمته، وبما أنشأ فيها من ثمرات وزروع، جعلها قوتًا لعباده، وحفظًا لحياتهم، وتمم ذلك في يومين، وقامت الأرض بما عليها وما فيها في أربعة أيام من أيام الله التي لا يعلم قدرها غيره سبحانه وتعالي.

ثم بينت الآيات أن الله تعالى بعلمه المحيط وقدرته القاهرة قصد قصدًا تكوينيًا، فجعل السماء التي كانت دخانًا لا يتماسك ولا يستقر فسواها بقدرته بناء متماسكا وسقفًا محفوظًا، في يومين من أيامه، وبذلك تم عدة أيام الخلق للسموات والأرض ستة أيام، وقد تكررت هذه العدة في القرآن الكريم، ثم قال

لها بما شاء من كيفيات القول والإفهام، ومعها الأرض ائتيا بما فيكما من آيات وعجائب، وثمار وزروع وأنهار وعيون ومعادن وخيرات، وسائر مخلوقات الله من ملائكة وإنس وجن طوعًا، بإخراج ما أودعنا فيكما من أسرار وآيات لتكون دلائل لعبادنا على قدرتنا ورحمتنا وإنعامنا ليقوموا بحق شكر ما يكشفون منها ويتمتعون به في حياتهم.

وليست الأيام المذكورة في هذه الآيات ظرفًا لخلق الأرض والسموات والأقوات هي أيام حياتنا المعروفة في حساب الناس وأعرافهم بأسمائها وأقدارها الزمنية، ولكنها تقدير إلهي يقرب الله به إلى العقول تصور تسخير القوى الكونية للقدرة الإلهية بما تأنس به وتألفه في متعارفها.

أخرج أبو عبيد من طريق ابن أبي مليكة قال: سأل رجل ابن عباس رضي الله عنهما عن

﴿يَوۡمٍ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٍ﴾

(السجدة: ٥)

فقال له ابن عباس: فما

﴿يَوۡمٍ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٍ﴾

(المعارج: ٤)؟

فقال الرجل: إنما سألتك لتحدثني، فقال ابن عباس: هما

يومـان ذكرهما الله في كتابـه، الله أعلم بهما، وهذا من الحبر ابن عباس نظر متعمق في فهم القرآن وفي آياته.

ولمـا اسـتتمت الآيـات ذكر براهيـن القدرة الإلهية الحسـية والعقليـة السـماوية والأرضيـة المقتضيـة ببداهة العقـل توحيد الألوهيـة وتفريـد الله تعالـى خالـق الأرض والسـموات وما جعل فيهـا من آيـات وأسـرار بالتعبد له، ولـم يبق لهـؤلاء المعاندين الذين خوطبوا بالآيات المذكورة بالأسـلوب التعجيبي عذر، ولم تقـم لهم فـي كفرهم وجحودهم حجة ولا شـبهة، جاءهم الوعيد يجلجـل بالتهديـد، والوعيـد تخويـف وإنـذار لكل من يسـلك مسلكهم، ويمشي في طريق إلحادهم وكفرهم.

﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴾

(فصلت: ١٣)

في تفصيـل مرعب مخيف لما حـل بالمتمردين المعاندين مـن الأمـم السـابقة، والعـرب كانوا أقـوم الناس بفهـم القرآن وأعرفهـم بحقائقـه ومراميـه، وزواجـره، ونواهيـه، لأنه على سـنة مخاطباتهم، ومجاري أسـاليبهم نـزل، وبلغتهم وطرائق صياغاتهم خاطبهم.

ولأمـر ما اختار رسـول الله ﷺ هـذه السـورة الكريمة لتكون جوابًـا علـى محـاورة عتبة له ﷺ في سـفارته إليـه إجابة لاختيار

قريش له، لعلمه بالسحر والكهانة والشعر، فكان لها أثرها العميق في نفس عتبة.

ذكر القرطبي وابن كثير وغيرهما أن الزيال بن حرملة روى عن جابر بن عبد الله قال: قال الملأ من قريش وفيهم أبو جهل – وهو صاحب الكلام – قد التبس علينا أمر محمد فلو التمستم رجلًا عالمًا بالشعر والكهانة والسحر فكلمه، ثم أتانا ببيان من أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الكهانة والشعر والسحر، وعلمت من ذلك علمًا لا يخفى عليّ إن كان ذلك، فقالوا: إيته فحدثه، فأتى عتبة النبي ﷺ، فقال له: يا محمد أنت خيرٌ أَمْ قصي بن كلاب؟ أنت خير أَمْ هاشم، أنت خير أَمْ عبد المطلب؟ أنت خير أَمْ عبد الله؟ كل ذلك ورسول الله ﷺ ساكت لا يرد عليه، ثم قال عتبة إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم (إن في قريش ساحرًا)، و(إن في قريش كاهنًا)، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحُبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى.

أيها الرجل: إن كنت إنما تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا

فكنت رئيسنا ما بقيت، وإن كنت تريد الباءة زوجناك عشر نساء من أي بنات قريش شئت، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك.

فقال رسول الله ﷺ: «قد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم قال: «فاسمع مني» قال: يا ابن أخي قل أسمع، فافتتح النبي ﷺ سورة حم السجدة، وهي سورة فصلت فقرأها على عتبة حتى بلغ قوله تعالى:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾

(فصلت:١٣)

فوثب عتبة ووضع يده على فم النبي ﷺ وناشده الله والرحم ليسكتن.

وهنا تختلف الرواية، فابن كثير ومن معه، يقولون: فرجع عتبة إلى قريش، فقالوا له: ما وراءك؟ قال ما تركت شيئًا أرى أنكم تكلمون به إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟ قال نعم، لا والذي نصبها بنيّةً ما فهمت شيئًا مما قاله[٢٣]، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، قالوا: ويلك! يكلمك الرجل بالعربية ولا تدري ما قال، قال: لا والله ما فهمت شيئًا مما قال غير ذكر الصاعقة.

---

(٢٣) نصبها بنيَّةً: أي أقام الدنيا مبنية على نظامها. (المجلة).

والقرطبي ورواية أخرى لابن كثير وغيره تقول: أن عتبة بعد أن سمع من رسول الله ﷺ ما سمع رجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، فانطلقوا بنا إليه، فقال أبو جهل: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبأت إلى محمد وأعجبك طعامه؟ فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلم محمدًا أبدًا، ثم قال: تعلمون والله أني من أكثر قريش مالاً، ولكني لما أتيته وقصصت عليه القصة أجابني بشيء ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، ثم تلا عليهم عتبة ما سمع من رسول الله ﷺ حتى بلغ قوله:

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾

(فصلت: ١٣)

فأمسكت بفيه، وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئاً لم يكذب فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب.

وقد قدمنا الرواية التي تذكر أن عتبة لما رجع إلى قريش في ناديها رأوه متغير السمت والسحنة، وأنهم لما سألوه انتهى بهم

إلى قوله: فأطيعوني في هذه، وأنزلوها بي: خلوا محمدًا وشأنه واعتزلوه، فوالله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ، فإن أصابته العرب فقد كفيتموه بأيدي غيركم،

وإن كان ملكًا أو نبيًا كنتم أسعد الناس به، لأن ملكه ملككم، وشرفه شرفكم، فقالوا هيهات: سحرك محمد يا أبا الوليد، قال: هذا رأيي لكم، فاصنعوا ما شئتم.

ثم تابعت السورة الكريمة هذا التهديد الدنيوي بتهديد أخروي، فصلت فيه بعض ما يحيق بالمعاندين الظالمين يوم القيامة من الفضوح وكشف الأستار بشهادة أعضائهم وحواسهم، وأردفت السورة ذلك كله - جريًا على سنة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد، والإنذار بالتبشير - بذكر ما أعده الله لأهل الاستقامة من ضروب الكرامة في دار النعيم، ثم عادت إلى تتميم ما بدأته من ذكر الآيات الكونية لتوكيد براهين القدرة الإلهية ودلائل التوحيد في لون آخر من الأسلوب والأداء

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

(فصلت: ٣٧)

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

(فصلت : ٣٩)

ثم وجهت السورة الكريمة نظر المفكرين إلى الذين يلحدون في آيات الله بتحريفها عن مواضعها من الصدق والحق إلى الأكاذيب والأباطيل، أو يلهمون النظر فيها ويعطلون حقائقها ومعانيها عن القيام بدورها في تكييف الحياة وتوجهها، وصبت عليهم سياط تهديدها ووعيدها بأسلوب الإبهام الذي يطوي تحته ألوانًا من العذاب

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ﴾

(فصلت : ٤٠)

ثم ختمت السورة هذا الاتجاه بقانون عام يقوم على أساسه نظام الحياة في ربط الجزاء بالعمل على أساس من العدل المطلق، الذي لا يحابي ولا يحيف

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

(فصلت : ٤٦)

ثم عرضت السورة الكريمة نموذجًا للإنسان في أثرته وحبه لنفسه، وبطره بالنعمة، ويأسه عند حلول النقمة، فإن قَدَرَ طغى

واستكبر، وإن عجز ذل وتصاغر، وهو في حاليه مُعْرِض عن الحق إعراض سفه وجهالة

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ (فصلت: ٤٩)

ثم ذكرت هذا المعنى في أسلوب آخر

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾

(فصلت: ٥١).

ومن ثم خوطب الإنسان في نماذجه الضالة عن سواء السبيل فقالت السورة الكريمة:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾

(فصلت: ٥٢)

قال الإمام الرازي في تفسيره: وتقدير هذا الكلام: إنكم أيها المخاطبون المعاندون كلما سمعتم هذا القرآن أعرضتم عنه ولم تنظروا فيه، وبالغتم في النفرة عنه، حتى قلتم: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر، ومن المعلوم بداهة أن العلم بكون القرآن باطلاً- كما زعمتم- ليس علما بديهيًا، فقبل ذكر الدليل والتأمل فيه يحتمل أن يكون صحيحا، وبتقدير ذلك

يكون إصراركم على دفعه وعدم قبوله من أعظم موجبات العقاب لأن العقل يوجب النظر في الدليل لمعرفة الحق.

ولما استكملت السورة وجوه الدلائل القاطعة مبثوثة في السماوات والأرضين على وجود الله ووحدانيته وعظيم قدرته، وظهر أن هؤلاء المعاندين كانوا نماذج للفطرة الفاسدة والعقول الجامدة على تقليد موروث الآباء في جهالة جاهلة، وأنهم لم يستفيدوا من كتاب الكون الذي عرض آياته القرآن الكريم عليهم، واستنهضهم للنظر فيها- نبهت السورة في خاتمتها إلى أن الله تعالى سيجعل من سلائل الإنسانية نماذج أخرى، يضيء عقولهم، فيكشف لهم بها عن آياته في آفاق الحياة، وجوانبها العلوية والسفلية، وعن آياته في أنفسهم وما انطوت عليه بنيتهم البدنية من أسرار التركيب، وبديع الخلق فيما ظهر منها وما بطن، وعن آياته فيما أودع أرواحهم من الأسرار النورانية، وما جعل في عقولهم من الإشراقات الفكرية، وذلك في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾

(فصلت: ٥٣)

وظاهر أن المراد بآيات الآفاق التي سيكشف الله عنها للعقول التي ستأتي في نماذج المستقبل من سلائل الإنسانية

(المتطـورة)، والتي سـيريهم إياهـا حتى يعلموا علـم يقين عن تجربـة وبرهان صـادق هي الآيـات الفلكية والكوكبيـة، وآيات الليل والنهار، وآيات الأضواء والظلمات، وآيات عوالم العناصر، وآيـات المواليد في أنواع المخلوقات السـماوية والأرضية مما لا يـزال مخبوءا في غيب الإبداع الإلهـي، وليس المراد هذه الآيات والأسـرار التي عرفها العقل الإنساني وكشـف عنها- كما يدل علـى ذلـك تعبير القـرآن بقوله: (سـنريهم) لأن هـذا يدل على أن الله تعالى سـيطلعهم على آيات وأسـرار مـن عناصر الكون لم يكونـوا قد رأوها من قبل، وهذا تسـجيل قرآنـي (للتطور) الذي ينتاب الحياة كلها نتيجة لعمل العقل وتجارب العلم.

وإذا كان المسـلمون قـد جهلوا هذا وأهملوا سـبله، وتركوه لغيرهم حتى ظهرت آثاره من آفاق غير آفاقهم، فهو حقيقة قررها القرآن ودعا إليها، والعلم لا وطن له، ولعل الله تعالى بمنه ولطفه يفتـح عقـول المسـلمين وقلوبهـم لينهضـوا مـن كبوتهم حتى يلحقـوا بقوافل الحياة، وهـي تضرب في مسـالك العلم صاعدة ونازلة، مشرّقة ومغرّبة.

والمـراد بآيـات الأنفس مـا أودع الله فيها مـن بدائع عجائبه، وأسرار خلقه وإبداعه ولطيف حكمته.

يقـول الإمـام الرازي: والعجائـب التي أودعهـا الله تعالى هذه

الأشياء مما لا نهاية لها، فهو تعالى يطلع عباده على تلك العجائب زمانا فزمانا وحالا بعد حال.

وقد أكثر القرآن الكريم جدا من ذكر آيات الله في الآفاق والأنفس، ونبّه العقول والبصائر على النظر فيها والتأمل في بدائعها وما وراءها من بدائع محجوبة، ولكنها بمعرض الكشف الذي يقوم به العلم في وثباته التجريبية، يقول الله تعالى:

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ (الذاريات: ٢٠- ٢٣)

فآيات هذه السورة الكريمة جامعة لجوانب متعددة من أصول رسالة محمد ﷺ ففيها بيان أساس العقيدة بتوحيد الله، وفيها بيان الرسالات الإلهية، وأن الرسل لم يخرجوا عن كونهم بشرًا كسائر البشر، ولكن الله تعالى ميزهم بمنه عليهم أن اختارهم لرسالاته بتوحيده، وفي آيات هذه السورة الكريمة بيان أصول العبادات والمعاملات، وفيها التنويه بأصول الفضائل الخلقية، والآداب الاجتماعية:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

(فصلت: ٣٤)

وفيها من الآيات والإشارة إلى وثبات العلم ما جعل العقل الإنساني كفيلا بالكشف عنه في مستقبل الحياة وتوالي العصور والأزمنة، وتتابع الأجيال، وفيها بين ذلك وعد، وترهيب وترغيب، وفيها بيان لما حل بالمكذبين لرسالات الله المعاندين لرسله من الغابرين، ليكون في ذلك عبرة وذكرى لأولي الألباب.

وفي الحديث عن الآيات الكونية إشارة إلى انطلاق العقل ليفكر ويعمل بكل ما لديه من وسائل العلم وأساليب المعرفة، وينهض بكل ما أوتي من قوة ليكشف عن عجائب الكون وأسراره التي لا تزال محجَبة في ضمير الغيب، وقد وعد الله تعالى بالكشف عنها عن طريق هذا العقل المتحرر من أغلال الجمود، كلما استقامت له وسائل علمية جديدة.

وهذه الآيات والعجائب الموعود بالكشف عنها في مستقبل زمن الخطاب المباشر وقت نزول القرآن المفهوم من قوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾

يجب أن تكون شيئا جديدًا غير ظواهر الآيات المشهورة المعروفة لأولئك المخاطبين، كالليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والسماء والأرض في ظواهرها.

فهي إما خصائص في هذه الآيات المشهورة وراء تلك الظواهر،

لم تصل إليها عقول الغابرين، أو هي آيات في عوالم أخرى يخلقها الله ويكشف عنها العلم بأساليبه وطرائقه المتجددة:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾

(النمل: ٩٣)

***

هذه السورة الكريمة من سور القرآن في إطارها الموجز الذي صورنا به حقائقها ومعانيها كما تضمنتها آياتها، كانت هي الجواب عن مساءلة عتبة بن ربيعة، سفير ملأ قريش إلى النبي ﷺ لمكالمته، وعرض أمورا اتفق عليها ملأ قريش ليختار محمد ﷺ منها ما يشاء فيعطاه، ويكف عنها.

ولنهمل- قصدًا- الحديث عن فوارق أدب المحاورة في تسامي المكارم، وكريم الخلق في ذرى الفضائل، مما تجلى في موقف النبي ﷺ، وهو يستمع إلى عتبة بن ربيعة أحد سادات قريش وسفير ملئها إلى رسول الله ﷺ ليكلمه ويعرض عليه ما يستكفه عنهم، ومما تجلى في أسلوب الجهالة والعنجهية الذي اختاره عتبة في مكالمة رسول الله ﷺ منتزعًا من عقليته الجاهلية المادية الوثنية.

لأن محمدًا رسول الله ﷺ الذي تولى الله تعالى تربيته وتأديبه وتعليمه لا يسوغ في شرعة الإنصاف والحق أن يوضع في ميزان

مع غير الأنبياء والمرسلين، بله رجلا من طواغيت الكفر وأحلاس الوثنية البليدة يستغرقه الغرور الجَحود بمواريث الجاهلية.

ولكنا نمر إذ نمر على هُجْر عتبة- وهو يسائل النبي ﷺ عند فلان وفلان، أهو- أي محمد ﷺ أفضل أم هذا الفلان، أو ذاك العلان، ونصب عتبة من قبض الريح في بطحاء مكة ميزانًا يقيس به التفاضل بمقياس الجاهلية الدابرة- صامتين كما مر عليه سيدنا رسول الله ﷺ وهو ساكت لا يرد على ما يسمع من تساؤل جهول، حتى فرغ عتبة من مكالمته وعروضه، فلم يزده رسول الله ﷺ على قوله: (أقد فرغت يا أبا الوليد؟ فاسمع).

وأرهف عتبة سمعه، وأعد مشاعره وحواسه لتصغي وتسمع، وتلا عليه النبي ﷺ هذه السورة الكريمة، وأخذ عتبة عن نفسه بتأثير ما يسمع مما لم يسمع مثله من قبل، وذهل وتحير ووجم محاولا أن يتماسك ليستجمع شعوره وإحساسه، ونقف وقفة تأمل في موقف عتبة بعد أن استكمل سماع ما قرأ عليه رسول الله ﷺ من آيات السورة الكريمة.

فهو:

أولا: قد فزع فزعًا شديدًا، وانزعج انزعاجًا مرعبا دفعه بغير حس أو شعور إلى أن يندفع ليضع يده على فم رسول الله ﷺ يناشده الرحم أن يكف عن قراءته، وكان رسول الله ﷺ قد بلغ

منها إنذارهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، خشية أن ينزل عليه وعلى قومه عذاب الصاعقة، ولإيقانه بأن محمدًا ﷺ لا يكذب قط، وأنه إذا أخبر عن شيء وقع كما أخبر.

ثانيًا: لما انصرف عتبة عن رسول الله ﷺ بعد أن أنهى مهمة سفارته اختلفت الروايات في كيفية انصرافه.

فقد روي أنه رجع أَمَمًا إلى ملأ قريش وهم مجتمعون في انتظاره، ليسمعوا منه ما قال لمحمد ﷺ في محاورته إياه، وما قال له محمد ﷺ في رده عليه، فرأوه راجعا إليهم بوجه غير الوجه الذي ذهب به من عندهم، وكأنه في ذهول عن نفسه، تكتنفه الحيرة من جميع جوانبه، فلما جلس إليهم ابتدروه بالسؤال: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني ما تركت شيئًا أرى أنكم - لو رأيتموه - تتكلمون به إلا كلمته به، قالوا: فهل أجابك؟ قال: نعم، لقد سمعت منه قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر، ولا بالشعر، ولا بالكهانة، غير أني لم أفهم مما قال شيئا غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، فأمسكت بفيه، وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب فقالوا: ويلك! يكلمك الرجل بالعربية، لا تدري ما قال!

قال عتبة : لا والله ما فهمت شيئًا مما قال غير ذكر الصاعقة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزته عزتكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال عتبة : هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم.

وقد روي أن عتبة لما انصرف من عند النبي ﷺ رجع إلى أهله واحتبس في بيته ولم يخرج إلى ملأ قريش، فشكوا في أنه صبأ إلى محمد ﷺ وتخوفوا ذلك لأن عتبة أحد ساداتهم، ولو قد أسلم لتبعه كثير، وأراد غميز الرجولية وألد أعداء النبي ﷺ أبو جهل بن هشام أن يثير حمية الجاهلية في نفس عتبة، ويشعل نيران العصبية في صدره، فذهب إليه في بيته وعَيَّره بالفقر والحاجة، ولمزه بالبطنة والدناءة حتى استغضبه، وثار عتبة لحميته الجاهلية، وعاد إلى ملأ قريش أسوأ جاهلية وكفرًا.

وظاهر من موقف عتبة- على أية رواية- أنه كان على اقتناع تام بصدق محمد ﷺ وأنه فهم مما قرأ عليه رسول الله ﷺ ما يمكن لعربي مثله أن يفهمه من إفحام أسلوب القرآن، وروعة بيانه، وإعجاز أدائه، وما يبدو للناظر لأول وهلة من حقائقه القريبة في

العقيدة ودلائلها والآداب وفنونها، ومعانيه السافرة في الأخلاق ومظاهر السلوك وطرائق التربية[٢٤].

أما آياته الكونية وحقائقه العلمية فهي أبعد من أن تقع لفهم عتبة وأمثاله، وهذا هو الذي أوقع عتبة في الحيرة والدهش، فلم يفهم منه شيئا سوى أنه ليس في متناول متكلم قط أن يقول مثله، وأنه ليس من قبيل ما تعارفوه بينهم في قوة التأثير، كالشعر والسحر، والكهانة، وإنما هو قول غريب على أسماعهم، لم يسمعوا مثله قط، مع أنه بلغتهم ولسانهم، وقد كان عتبة صادقًا في قوله: ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة والذين لاموه وعنّفوه على عدم فهمه شيئا مما سمع كانوا في جاهليتهم يعيشون مع لغتهم وأشعارها وخطبها ولم تقرع أسماعهم آيات القرآن، ولو سمعوا ما فهموا، لأنهم لا يريدون أن يفهموا.

حكمة اختلاف الموقف مع ملأ قريش عنه مع عتبة بمفرده

ثالثا: كان جواب النبي ﷺ لملأ قريش الذين لم تقنعهم سفارة أحد ساداتهم، عتبة بن ربيعة، بينهم وبين محمد ﷺ ليكلمه ويعرف ما عنده، ويعرض عليه ما يستَكِفُّه به عنهم، فاجتمعوا وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم ليكلموه، فأسرع إليهم ظانا

(٢٤) السافرة: المراد هنا الواضحة. (المجلة).

أن قد بدا لهم بداء فيما كلمهم من أمر دعوته ورسالته، ولعلهم يكونون قد ثابوا إلى رشدهم، وكان ﷺ حريصًا على هدايتهم محبًا لرشدهم عزيزًا عليه عنتهم.

ولعل سيدنا رسول الله ﷺ رأى بحكمة تسديد الله له، وتوجيهه في سير دعوته وتبليغ رسالته أن إسماع عتبة منفردا عن غوغاء قريش شيئًا من جوامع آيات القرآن فرصة لا تتاح مع الجموع المختلطة التي تجمع الغث والسمين، والأحمق والرزين، والسفيه والمتعقل.

والغوغاء لا زمام لها تقاد به فكريًا، ومن العسير أن يضبط لها رأي، أو يعرف لها تدبير في فكر، وعتبة اختارته قريش لتعقله، ومعرفته بمظاهر جاهليتها العقلية، وكانت فيه أناة وبعد عن السفه والطيش.

وكانت محاورة الملأ للنبي ﷺ في صميم موضوعها هي عين ما تحدث به عتبة وعرضه على رسول الله ﷺ فأجابهم بقوله: (ما بي ما تقولون)، وأفهمهم في صراحة هادئة وثقة مؤمنة وإيمان راسخ، وعزم وطيد، أنه ﷺ لا يطلب أموالهم، ولا الشرف فيهم ولا السؤدد والملك عليهم، وإنما جاء بما جاءهم به من الهدى لأن الله تعالى بعثه إليهم رسولا، وأنزل عليه كتابًا منيرًا، وأمره أن يكون لهم بشيرًا بملك الدنيا ونعيم الآخرة إن استجابوا لربهم

وخالقهم، وخلعوا الأنداد والشركاء، وآمنوا برسالات الله، وصدقوا رسوله فيما جاءهم به وآزروه حتى يبلغ رسالته كما أمره أن يكون نذيرًا لهم، يخوفهم نقم الله وبطشه إن أعرضوا وتولوا مدبرين، وأقفلوا قلوبهم دون إشراق الحق، وغلفوا عقولهم بالجهالة والسفه، ولم يسمعوا كلام ربهم مؤمنين به مهتدين بهديه، مثل ما وقع للأمم الغابرة قبلهم الذين كذبوا رسلهم وآذوهم، وسفهوا عليهم، فأنزل الله بهم نقمته، وأرسل عليهم الصواعق وصنوف العذاب حتى استأصلهم، فلم تُرَ لهم على ظهر الأرض من باقية.

وأفهم رسول الله ﷺ ملأ قريش أنه بلغهم رسالات ربه، ونصح لهم، ودعاهم إلى الله تعالى، حريصا على هدايتهم، محبًا لرشدهم، وهذا أقصى ما يملكه لهم، فليس في طوقه أن يقسرهم على الإيمان برسالته، ولا أن يكرههم على قبول دعوته، وهم بعد هذا البلاغ أحرار، فإن قبلوا منه ما جاءهم به من النور والهدى والخير فهو حظهم في الدنيا والآخرة، وليس وراء هذا الحظ ذرة من خير، وإن ردوه عليه صبر لأمر الله، في غير قلق ولا ضجر، ثابت العزيمة راسخ اليقين في إيمانه برسالة نفسه حتى يحكم الله بينه وبينهم بما يشاء، فقد يهديهم ويهدي بهم، أو يخرج من أصلابهم معاقل للهداية،

وكتائب لتبليغ الرسالة، وجنودا لحمل ألوية الدعوة إلى الله تعالى في أقطار الأرض وفجاج البلاد.

تعنت ملأ الوثنية وعناد المشركين:

ولما يئس ملأ قريش من استجابة النبي ﷺ لمطالبهم المادية الأرضية، ووقف مع إيمانه برسالة نفسه عند معاقد عزته وجميل صبره، مستمرًا في تبليغ رسالته، قوّاما بأمر دعوته، لا يفتر ولا يستحسر- لجئوا إلى التعنت واقتراح المطالب التي دفعهم إليها العناد الكفور، والحسد الحقود، فقالوا له: فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك، فلا تريد مالا وثراء، ولا تريد شرفا وسؤددا، ولا تريد ملكا وسلطانا، فاسأل الله لنا أن يوسع علينا ديارنا وبلادنا، فيسيِّر عنها الجبال التي تختنقها، ويفجر فيها الأنهار والينابيع، فلم يتحول رسول الله ﷺ عن موقفه في وثاقة إيمانه برسالة نفسه، وسمو أدبه في عبدويته لربه ومعرفته بجلاله، ولا اهتزت نفسه ذرة عن دعائم صبره ومضاء عزيمته، فقال لهم: (ما بهذا بعثت إليكم) وأقام ﷺ في عزم مصمم على ما قاله لهم إذ عرضوا عليه دنياهم في الشرف والسيادة والملك والمال والثراء، فأبى أن يقبل منهم شيئا من أمورهم، فلما استيأسوا منه خلصوا نجيّا، وأدخلوا أنفسهم على حياة رسول الله ﷺ الخاصة، وأقحموا تافهات أفكارهم على عيشه وشأنه

فـي صورة عاطفية مرذولة زائفة مزورة، فقالوا له: فإذ لم تقبل منا ما نطلب لأنفسـنا وديارنا فخذ لنفسك، وسل ربك أن يجعل لك جنانـاً وقصوراً وكنـوزاً يغنيك بها عما نراك تبتغـي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه.

رد رسول الله ﷺ على هذا التعنت الكفور يصور رحمته التي أرسل بها للعالمين:

فقـال لهم رسـول الله ﷺ يـرد عليهم هـذا التطفـل العاطفي الكـذوب الأبله: (ما أنا بالذي يسـأل ربه هـذا، وما بعثت إليكم بهـذا) وكـرر عليهم ما قاله فـي بيان هدف رسـالته وصبره على فوادح تبليغها مهما يلقى في سبيلها من عنت وبلاء.

ولم يقـف الحمق وخرق الرأي وسـفه التفكير بمـلأ المادية الوثنيـة عند هذا الحد، ولكنهم اشـتطوا على أنفسـهم، وركبوا شـيطان الجهالة وفجور الوثنية، فاسـتنزلوا على أنفسهم سخط الله ولعناته، فقالوا وهم في غمرة بأسـهم: فأسـقط السماء علينا كسـفا كما زعمت أن ربك إن شـاء فعل، فإنـا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

فرد عليهم رسـول الإيمان والرحمة ﷺ هذا الشـطط المعتوه فقال: (ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل).

وقد حكى الله عنهم أبشع من هذا فقال:

﴿ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾

(الأنفال: ٣٢)

ولكن اللطيف الودود الذي أرسل محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، ولم يرسله لعنة على المعاندين الجاحدين، جعل وجوده حصنًا حصينًا من تنزل عذاب الاستئصال في الدنيا بهؤلاء المعاندين الجاحدين، فقال له عقيب تصوير بشاعتهم، يرفع ذكره وينوه بمقامه عنده:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ ﴾

(الأنفال: ٣٣)

وجعله أمانا ولو ظلوا على كفرهم وشركهم، ثم جعل توبتهم بالإيمان واستغفارهم لما سلف من كفرهم أمانا بعد النبي ﷺ فقال:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾

قال قتادة في قوله تعالى:

﴿ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ ﴾

(الأنفال: ٣٢)

قال ذلك سفهة هذه الأمة وجهلتها، فعاد الله بعائدته ورحمته على سفهة هذه الأمة وجهلتها.

الفهرس